

جمال بدوی
ملا فور السیاف
... و اخوانه



حاجی
التونی

مستور السيف
والخوذة

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

أسسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيوفه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تلفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

جمال بدوی

ملا فی السیف
وإخوانه

دار الشروق

تقديم

« مسرور السيف » أشهر قاتل في تاريخ الدولة العباسية ، بل في تاريخ العصور الوسطى . . لم يكن قاتلا مأجورا مثل بعض المحترفين الذين يقتلون بالأجر . . ولكنه كان موظفا عموميا في بلاط الخليفة هارون الرشيد . . يلازمه كظله ، وينفذ إرادته بقطع رؤوس الخصوم المغضوب عليهم . . « فمسرور » كان مجرد أداة لإزهاق الأرواح مثل « عشاوى » الذى يحرك ذراع المشنقة فتهاوى جثة المشنوق فى البئر ، أو ذلك الخبير الذى يضغط على الزر فيصعق الشخص المحكوم عليه بالإعدام وهو جالس على الكرسي الكهربائى . . وأنا لا أتناول - هنا - مسرورا السيف كشخص فنحن لا نعرفه ، ولا نحمل له فى نفوسنا ضغينة . . ولكنى أقدمه فى هذه الفصول كظاهرة ملازمة لنظم الحكم الاستبدادية . . حيث يملك الحاكم كل السلطات . كلمته هى القانون . . وإرادته فوق كل إرادة . . وحياة الإنسان معلقة بكلمة تخرج من فيه . . أو إشارة من يده فتتطاير الرؤوس . . وتتساقط الجماجم . . وتسيل الدماء . . وقد يتعجل الحاكم فى الحكم على مظلوم ثم تظهر براءته ، ولا يكون مجال لإعادة الروح إلى الجسد الطريح ، كما حدث للقاضى الفضيل بن عمران ، وكان يعمل مؤدبا ومعلما لجعفر ابن الخليفة المنصور العباسى ، ثم ذهب الوشاة وهمسا فى أذن الخليفة بأن الفضيل يعيث بآبائه ، فما كان منه إلا أن كلف (مسرور) بقطع رأس القاضى ، وانطلق السيف لأداء مهمته ،

وعندئذ علم الصبي جعفر بالأمر ، فأصابه الجزع لما كان يعلمه من كذب
الوشاية ، ولما عهده في الرجل من عفة وفضيلة ، وانطلق في إثر السيف ليمنع
الجريمة ، ولكنه وصل بعد فوات الأوان . . ووجد أمامه جثة الرجل ودماؤه لم
تجف (١١) وهالته الصدمة . . ونعى على أبيه قتل رجل برىء بغير جرم
ولاخيانة . . فقال له السيف : أبوك أمير المؤمنين . . يفعل ما يشاء . . وهو
أعلم بما يصنع (١٢).

هذا هو دستور الطغاة . . إذا جاز أن يكون للجور والظلم دستور . . فلا
أحد يحاسبهم على أفعالهم . . ولا أحد يسألهم عن دماء الناس . . ولا أحد
يحد من جبروتهم . . وعندما اتخذ الرشيد قراره الخطير بالقضاء على البرامكة ،
لم يستشر أحدا . . ولم يقدمهم إلى القضاء ليعطيهم حق الدفاع عن
أنفسهم . . ولم يكلفه الأمر سوى إشارة إلى (مسرور) ليأتيه برأس جعفر بن
خالد البرمكي ، صديق عمره وأحب الناس إليه ، وبعدها انطلقت الجحافل
إلى قصور البرامكة تقبض عليهم ، وتصادر أموالهم ، وتودعهم السجون ،
فماتوا في محبسهم دون أن يستمع أحد إلى دفاعهم عن أنفسهم ، وتركوا
المؤرخين في حيرة من أمر هذه النكبة ومسبباتها ودوافعها ، فذهبوا في تفسيرها
كل مذهب .

كان هذا نهج الطغاة في تلك العصور في الشرق وفي الغرب ، وكان الأباطرة
والملوك والبابوات يتصرفون في أرواح البشر كما يتصرفون في أملاكهم الخاصة . .
وانتقلت هذه النظم الفاسدة إلى الحكومات الإسلامية ، وتحول الخلفاء
والسلاطين والولاة - بعد عصر الراشدين - إلى أنصاف آلهة ، لا راد لإرادتهم ،
ولا معقب على حكمهم ، فهم الحكام والخصوم والقضاة والمحققون
والمنفذون . . لا مجال للفصل بين السلطات . . ولا مكان للتحقيق
والتمحيص واعتبار المتهم بريئا حتى تظهر براءته (١٣) .

ونحن عندما ننتقد تصرفات هؤلاء الحكام المستبدين ، فلإننا لا نحاسبهم بحساب عصرنا . ولا نلومهم لأنهم لم يأخذوا بالأساليب القانونية والتقاليد الديمقراطية التى توصلت إليها المجتمعات العصرية ، وإنما نحاسبهم بمقتضى الأصول الإسلامية التى أمرت بالعدل والإحسان ، وحرمت الجور ، وجرمت الظلم ، وحفظت دماء الناس وأموالهم وأعراضهم ، وجعلت لروح الإنسان حصانة لا تُمس إلا قصاصا . . ولكنهم اجتنبوا هذه التعاليم السامية والمبادئ الراقية التى جاء بها الإسلام . . وأخذوا بما كانت عليه الأمم الغابرة من استبداد وظلم . .

ولقد رأيت أنه من المفيد أن نستخرج هذه الصفحات من تاريخنا ونقرأها جيدا ليكون لنا منها عبرة . . ونحذر الوقوع فى شرك الاستبداد والطغيان . . ونحمى أنفسنا من عبث مسرور السيف وإخوانه .

جمال بدوى

مصر الجديدة اغسطس ١٩٩٦

اغتيال ابن المقفع

هذا معارض من ألف عام وإن شئت الدقة ، فقل من ألف و ٢٣٠ سنة حين لقي مصرعه في أبشع ميتة يموتها إنسان . . وإلا . . فما قولك فيمن يوثق بالحبال كما توثق الأسود في شباكها . ثم تنهال عليه سكين الجزار فتقطع لحمه قطعة وراء قطعة . . ثم تُلقى في النار أمام ناظره . . فلا يتراجع . . ولا يتخاذل . . ولا يستعطف جزاره أو يستجديه الرحمة . . وإنما يلقي في وجهه بهذين البيتين يجود بهما مع آخر انفاسه :

إذا ما مات مثلي مات بموته خلق كثير
وأنت تموت ليس يدري بموتك لا الصغير والكبير

ولا تزال جريمة اغتيال الأديب العظيم عبد الله بن المقفع تشغل بال الباحثين والمفكرين ، وكل يذهب في تحليلها كل مذهب ، ولا يزال اسمه يرن في دنيا السياسة والعلم والأدب ، ولا يزال علماء السياسة يحفظون له آراءه في تنظيم الدولة ومكافحة الفساد ، بينما لا يحفظ أحد اسم الوالي - الجزار - الذي نكّل به وقطع أوصاله إرباً إرباً . . وصدقت عليه لعنة ابن المقفع . . فهل لك دون أن يدري بموته لا الصغير . . ولا الكبير . .

ولم يكن عبد الله بن المقفع معارضا انقلابيا هداما يستحق الرجم أو السحل أو السمل ولا حتى الضرب بالفلقة ، فهو لم يشهر في وجه الدولة

سيفا . . ولا أدار تنظيما سريا لقلب نظام الحكم ، ولا تخاير مع دولة أجنبية ضد الدولة التى يعيش فى كنفها ، ولا تأمر مع الرجعية الغاربية ضد التقدمية الزاحفة . . وإنما كل ما كان يملكه هو سلاح الكلمة الصادقة الحرة الشريفة . . يقولها ورزقه على الله . . ولم يقترف جرما أكثر من أن قدم النصيح للخليفة ، وأشار عليه بما ينبغى عليه أن يفعله ليجتث جذور الفساد ويتخلص من بطانته المفسدة ومستشاريه الضالين المضللين الفاشلين . . واقتراح عليه أن يعطى العيش لخبازه ذى الخبرة اللبيب ، ويكافح الرشوة والمحسوبية واستغلال النفوذ . . ولم يبخل على الخليفة بمقترحات محددة لتنظيم الإدارة وضبط أموال الدولة وصيانتها من العبث ، وكان قصده فى كل ما قدّم من نصيح ونقد - ليس هدم الدولة - وإنما شد أزرها ، وتوطيد أركانها ، وتعزيز هيبتها حتى يزدهر العدل ، وينحسر الظلم ، ويتحقق الرخاء .

ولم يكن الحاكم ممن يسمعون النصيح أو يتقبلون النقد ، فهو يحسب كل نصيحة تطاولا على مقامه الأسنى ، وكل نقد اجترأ على ذاته المقدسة ، لم يكن الخليفة ، فى ذلك الزمن من صدر الدولة العباسية فى راحة الصديق ، أو مرونة عمر ، أو سماحة عثمان ، أو فقه على رضوان الله عليهم أجمعين ، ولم يكن من ذلك الرعيل الصالح الذى يفهم النصيحة كما جاء بها الإسلام ، ولكنه كان أبا جعفر المنصور - وما أدراك ما المنصور - قوة واقتدارا . . فهو الجبار الذى يأخذ بالشبهة . . ويحاسب الناس على خطرات أفئدتهم . . عملا بوصية أخيه الإمام إبراهيم : (من اتهمته فاقته) . . والاتهام فى ذلك العصر يعنى الشك . . فالشك فى الولاء للنظام قرينة تكفى لقطع الرقاب دون تحقيق أو مساءلة . .

وشاء حظ صديقى عبد الله بن المقفع ، أن يشهد المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الأموية ، ويرى مصرعها بسيف بنى قومه الفرس ، ويشهد مولد الدولة العباسية على أكتاف شيعة وأهله ، فكان عباسى الهوى والفؤاد ، ولم يكن

عنده ما يدفعه إلى البكاء على أفول نجم الأمويين وقد كانوا حربا على بنى جنسه المولاي ، ولم يكن عنده ما يدفعه إلى التآمر على النظام الجديد ، وقد حظى فيه الفرس بالنفوذ والجاه والثراء . . بل كان عنده ما يحفز على الولاء لهذه الدولة التي حظى فيها ابن المقفع نفسه بالثقة حيث عمل كاتباً في قصور الارستقراطية الحاكمة من أعمام الخليفة المنصور . . ولكن هذه الثقة المتبادلة بين النظام والكاتب الحر لم تتحول من جانبه إلى مداينة ورياء وتملق ونفاق للحكومة . . وإنما فرضت عليه أن يكون أميناً في نصحه . . شريفاً في قصده . . شجاعاً في رأيه . . خبيراً بأوجه الإصلاح بمقتضى ثقافته العريضة ومعرفته بأصول الحكم في الدولة الساسانية .

تلقت ابن المقفع حوله فوجد الاستبداد يتغلغل في قمة الدولة ، ورأى الفساد يضرب أطنابه في مؤسساتها الإدارية والمالية والقضائية والعسكرية ، ووجد الخلل يتسرب إلى الحكم على أيدي فئة من الوصوليين احترفت الإحاطة بالحكام لتضليلهم والتغريب بهم وحجب الحقيقة عنهم ، فالأموال الجمّة تحمل من الأمصار والولايات إلى بغداد - عاصمة الخلافة - بدون سجلات تضبطها أو دفاتر تحاسب الجباة على ما تحت أيديهم من أموال ، والقضاة يتضاربون في أحكامهم في القضية الواحدة من بلد إلى بلد لعدم وجود قانون موحد يرجعون إليه في أحكامهم ، وقادة الجند - نجوم العهد الجديد - يعيشون في الأرض فساداً ، وينشرون بين العامة دعاوى الذل والخنوع للحاكم المستبد تحت ستار الطاعة لولى الأمر ، وبلغوا في ذلك مبلغاً جسيماً حتى قال قائلهم : لو أمرنا أمير المؤمنين أن نستدبر القبلة في صلاتنا . . لسمعنا وأطعنا . . !! ووجد قصر الخلافة وقد أصبح مرتعاً للجهال والمتنفعين والباحثين عن المغامر بأسهل السبل ، رأى ابن المقفع كل ذلك واستوعبه ، وعرف بحكم تجربته العملية في قصور الأمويين عوامل الفساد التي تسرى في نخاع الدولة حتى تتقوض أركانها ، وينهار بناؤها ، وكان يدرك أن السكوت عن الفساد جريمة يابأها

ضميره اليقظ ، وحسه المرهف ، وعقله الراجح ، وتفكيره الناضج ، فانهيار الدولة العباسية يعنى نهاية نفوذ بنى قومه ، ووقوعهم تحت سلطة قوى جهوله لا يدرك خطرها إلا علام الغيوب ، ومن هنا جاء حرصه على قوة الدولة العباسية وتطهرها من كل عوامل الفساد ، وحمل ابن المقفع قلمه وكتب رسالة اسمها (رسالة الصحابة) ولا يعنى بذلك صحابة الرسول ﷺ ، ولكن يعنى صحابة الخليفة أو بطانته وحاشيته ، فهو يرى الدنيا بعيونهم . . . ويأتمنهم على أسرارهم ، ويستشيرهم فى أموره ، ومن ثم يفترض أن تكون هذه البطانة على الوجه الذى يتعناه من حيث الأمانة فى الصحبة ، والنزاهة فى المسلك ، والشجاعة فى النصيح .

وقد وجه ابن المقفع إلى هؤلاء الصحابة نقدا مريرا ، ولكى يحتاط للأمر قال إنهم - قبل خلافة المنصور - ارتكبوا أفعالا مفرطة القبح ، داعية للأشرار ، طاردة للأخيار ، ذلك أن الخليفة كان يقرب أوغاد الناس وسفلتهم ، فهرب الخيار من صحبة الولاة ، حتى إن قوما من صلحاء البصرة - وفيهم ابن المقفع - أتوا دار الخلافة أيام السفاح ، فرفضوا زيارة الخليفة لما يعلمون من شرور بطانته ، وسوء سيرتهم ولذا فهو ينصح المنصور بأن يختار صحابته من ذوى الرأى والأمانة والعدل ، فلا يصح للخليفة أن يقرب إليه إلا رجلا أتى بمكرمة عظيمة ، أو رجلا له ميزة من علو النسب أو حُسن البلاء ، أو رجلا له من الشرف وجودة الرأى والعمل ما يؤهله لذلك ، أو رجلا فقيها مصلحا ينتفع الناس بفقهاءه ثم انتقل ابن المقفع إلى عرض أفكاره فى إصلاح نظام القضاء الذى هو أساس الملك ، فرأى وضع قانون رسمى يلتزم به القضاء فى جميع أنحاء الدولة ، على أن يكون هذا القانون هو المرجع فى إصدار الأحكام التى لا يوجد لها نص غير مختلف عليه من الكتاب أو السنة ، فأما ما ورد فيه نص مختلف فيه فيجب أن يترك إلى ولاية الأمور ينظرون فيه باعتبار واحد وهو المصلحة العامة ، والفقهاء ليس لهم وضع قوانين وإنما عليهم أن يجتهدوا فى

المسائل من الناحية العلمية النظرية ، ثم يدلّوا بأرائهم إلى ولى الأمر ، وهو المقنن وحده .

ويجذب العلامة أحمد أمين هذا الاقتراح ويرى فيه وجاهة لأنه يتفق في كثير من نواحيه مع الآراء الحديثة في التشريع ، ويقول لو عمل به المسلمون لكان له أثر كبير في الإصلاح الاجتماعى وخاصة من الناحية القضائية ، بينما يربط يوسف أبو حلقة بين هذه الفكرة التى ابتكرها ابن المقفع منذ ١٢ قرنا ومشروع نابليون بونابرت حين دعا لجنة من كبار رجال القانون والتشريع وطلب منهم توحيد القانون الفرنسى توحيدا تاما ، وكان أن أخرج علماء القانون سنة ١٨٠٤ (القانون المدنى) الذى عُرف باسم (قانون نابليون) وقضى بذلك على فوضى التقنين وما كانت تتعرض له المناطق الفرنسية من تفكك .

وانتقد ابن المقفع مغالاة قادة الجند في فهم معنى الطاعة للخليفة ، وساقته هذه المعانى إلى بحث حدود الطاعة للحاكم ، وذكر المبدأ الأصولى المشهور (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) وقال : إن قوما فسّروا هذا المبدأ تفسيراً معوّجا ، والصحيح أن الخليفة يطاع فيما لا يطاع فيه غيره ، وبيان ذلك : أن هناك فرائض وحدودا بيّنها الله ، وفي هذا لا يُطاع أمير المؤمنين لو أمر أمرا يخالفها ، ولكن هناك أمور الدولة حسب الزمان والمكان ، وهذه لا تترك فوضى ولكن للناس أن يشيروا بأرائهم ، وعلى أولى الأمر أن يفكروا ويتدبروا ، فإذا رأوا رأيا وجب على الناس إطاعته ، وإن رأى الناس فيه نقصا أو عيبا أو خطأ نصحوه ولاة الأمور بأرائهم .

وفي شأن تدخل الجند في الشئون المالية للدولة ، نصح ابن المقفع أمير المؤمنين بأن يحول بين الجنود وذلك ، وعلل رأيه بأن (ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة) . ويستصوب أحمد أمين هذا الرأى لأن كثيرين من هؤلاء القواد اعتزوا بسلطانهم وجنودهم ، فظلموا الناس ، فلما عوقبوا على ظلمهم استغلوا

ما تحت أيديهم من أموال ، وما تحت طاعتهم من جند ، فخرجوا على الدولة وسببوا لها كوارث عديدة . وينصح الكاتب أمير المؤمنين بأن يعيد النظر في اختيار رؤوس الدولة بعد أن اكتشف أن هناك مرءوسين أكفأ من رؤسائهم ، فلو وضع الأكفاء والأخيار في موضع القيادة لكان من ذلك خير عظيم .

وينصح ابن المقفع الخليفة بتهذيب الجند ثقافة علمية وخلقية ، وتعليمهم الكتابة والتفقه في الدين ، وتعويدهم الأمانة والعفة والتواضع ، واجتناب الترف ، ثم ينصحه أخيراً بتقصي أحوال الجند ، والتعرف إلى أخبارهم وحالاتهم وباطن أمرهم حيث كانوا ، وأن يُعَيَّنَ لذلك الثقة الذين يخلصون له ، ولا يكتمون عنه شيئاً ، وألا يستكثر ما يُنفق في هذا السبيل ، فإن في ذلك الحزم واستئصال الشر قبل استفحاله .

وتحدث ابن المقفع عن الفوضى الناجمة عن جمع (الخراج) وهو المصدر الرئيسي لأموال الدولة ، وانتقد عدم وجود دفاتر أو سجلات تفصل بمقتضاها الأموال المقررة على الأرض ، واقترح للإصلاح أن تُمسح الأرض ويفرض عليها المال حسب جودتها على أن يعرف كل مالك ما عليه ويدون ذلك في سجلات تحفظ أصولها في دواوين الدولة ، ففي هذا « صلاح للرية وعمارة للأرض ، وحسم لأبواب الخيانة وعُشَم العمال » وختم مقترحاته في إصلاح الخراج بحسن اختيار القائمين بهذا العمل وشدة الرقابة عليهم واستبدالهم عند ظهور الخيانة عليهم .

والمدحش أن الدولة عملت على تنفيذ مقترحات ابن المقفع ، ولكن بعد أن فقد حياته ودفع ثمن جراته على نقد النظام الحاكم ، ففي مجال تقنين القوانين اقترح المنصور على الإمام مالك نسخ كتبه وتوزيعها على الأمصار ليعملوا بها فيها ولا يتعدوه إلى غيره ، ولكن الإمام العظيم رفض الاقتراح لأنه يحجر على حرية الاجتهاد ، ولعلمه أن صحابة النبي ﷺ تفرقوا في الأمصار ، وقد روى

كل منهم رواية تختلف عن رواية الآخر ، فقال للمنصور : دع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم ، فلما مات المنصور حاول حفيده الرشيد أن يفعل نفس الشيء مع الإمام مالك الذى أصر على موقفه من حيث الرضى فقال : « شاورنى هارون الرشيد فى أن يعلق « الموطأ » فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه ، فقلت : لا تفعل ، فإن أصحاب رسول الله اختلفوا فى الفروع ، وتفرقوا فى البلدان ، وكل مصيب . » .

وأخذت الدولة برأيه فى إصلاح نظام الخراج فوضع الإمام أبو يوسف - صاحب أبى حنيفة - كتابه الشهير (الخراج) بناء على طلب الرشيد ليكون كتابا جامعا يعمل به فى جباية الخراج وفق الأصول الفقهية وليكون مانعا للمظالم .

فأنت ترى أن صيحة ابن المقفع لم تذهب سُدى ، وأن كلمته لم تكن صرخة فى واد حتى ولو لم تعترف الدولة بأنها استجابت لأفكاره ، فمن عادة الحكومات المستبدة أن تستكبر على النصيحة ، وتستعلى على النقد ، ولكنها فيما بينها وبين نفسها تأخذ به ثم تتظاهر بأنها تحركت بمحض اختيارها حتى لا تعطى لمعارضيه فرصة الإدلال عليها ، وهو - كما ترى - تصرف ينم عن ضعف الشخصية ، لأن الحكومة القوية لا تجد حرجا فى النزول على رأى المعارضة مادام هذا الرأى يهدف إلى إصلاح العيوب وسد الثغرات والسعى نحو الكمال ، بل إن الحكومة المستبدة لا تتورع عن كتم أنفاس المعارض إذا اشتمت منه رائحة الاستعلاء عليها ، والتمست فيه تعمقا فى كشف معاييبها وفضح خباياها . . ولعل هذه الأفكار السوداء جاشت فى نفس المنصور وهو يقرأ (رسالة الصحابة) رغم أن ابن المقفع تعمّد أن يغفل اسم أمير المؤمنين المقصود بالرسالة ، ربما زيادة فى الحيلة والتقية من غدر المنصور ، وربما أملا فى أن تكون الرسالة موجهة إلى أى حاكم فى أى زمان ومكان ليستفيد بها

تتضمنه من برامج إصلاحية . . ومع ذلك لم تفلح كل هذه الحيلة في نجاة ابن المقفع من بطش المنصور . فكانت إشارته إلى أحد عماله بأن يقتل ابن المقفع .

ولكن بعض المؤرخين يرون أسباباً أخرى لحق المنصور على ابن المقفع . إنهم لا يختلفون على أن المنصور هو الذى أوعز إلى سفيان بن معاوية - واليه على البصرة - باغتيال ابن المقفع . ولكنهم يختلفون حول الأسباب . .

فمنهم من يرى أن شبهة الزندقة لحقت بابن المقفع ، خاصة أنه كان حديث عهد بالإسلام ، ولكن يُرد على ذلك بأن تهمة الزندقة كان عقابها الإعدام علناً . . ولا تستلزم تدبير جريمة في الظلام . .

والبعض الآخر يرى أن السبب الذى أثار حفيظة المنصور على ابن المقفع ، أن الأخير ركب متن الشطط عندما دبح كتاب الأمان لعبد الله بن على حتى يوقعه المنصور ، فضمنه عبارات جارحة لم يكن يليق أن تنسب إلى لسان خليفة في مكانة المنصور وتلك قضية هامشية تستحق التوضيح .

كان عبد الله بن على أحد زعماء البيت العباسى وقد جاهد وأبلى في سبيل إقامة الدولة على أمل أن يعينه المنصور ولياً لعهد . ولكن المنصور غدر به ، إثر توليه الخلافة ، ونحاه عن ولاية العهد فأظهر التمرد والعصيان وقاد جيشاً كبيراً من جنود الشام ، ولكنه هزم على يد أبى مسلم الخراسانى فلجأ إلى أخيه عيسى بن على حيث يقيم في البصرة ، وذهب عيسى يشفع لأخيه عند المنصور فأظهر استعداداً طيباً للصفح عن عمه .

كما وافق على أن يوقع له (كتاب أمان) حتى تقرر نفسه ويزداد طمأنينة ، وعاد عيسى إلى البصرة وطلب من كاتبه عبد الله بن المقفع . . أن يعد الكتاب المذكور حتى يوقعه المنصور ولما كان عيسى يعلم أن الغدر والخديعة من أبرز

صفات ابن أخيه المنصور فقد شدد على كاتبه أن يدبج الكتاب بكل عبارات الحيلة والاحتراز حتى لا يترك للمنصور ثغرة ينفذ منها للغدر بعمه عبد الله بعد توقيع الوثيقة .

واستجاب ابن المقفع لطلب سيده عيسى ، وعكف على إعداد الكتاب كما أمر ، ولكنه - كما يقول الدكتور أحمد شلبي - ركب متن الشطط والإسفاف ، فما كان له أن يكتب على لسان الخليفة عبارة مثل :

« وإن أنا نلتُ عبدَ الله بن علي بمكره . . فانا نَفَى من محمد بن علي بن عبد الله (أبيه) ومولود لغير رشده أى ولد سفاح وزنا وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحرى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى . . وأنا متبرئ من الحول والقول ومدع ، وكافر بجميع الأديان ألقى ربي على غير دين ولا شريعة ، محرم المأكول والمشرب والمناكب والمركب والرق والملك والملبس على الوجوده والأسباب كلها . . إلخ » .

فهل كان من المعقول أن يتقبل المنصور ، وهو المشهور بالجبروت ، مثل هذه العبارات . . ؟ .

وما حدث هو أن المنصور لم يكذ يقرأ الكتاب حتى غلى الدم فى عروقه ، وسأل عن كاتبه ، ف قيل له : ابن المقفع . ا فقال : فما أحد يكفينيه . . ؟ وكانت هذه العبارة القصيرة تعنى الحكم بالإعدام على ابن المقفع . . وعهد إلى سفيان بن معاوية وإلى البصرة بتنفيذ الأمر وما إن تلقى سفيان الإشارة حتى هش وبش . ووجدها فرصة لا تعوض لينفس عن حقه القديم على ابن المقفع ، وأخذ ينسج شباهه حول فريسته حتى ظفر بها ، وعندما وجد ابن المقفع نفسه داخل الأسر استجار بالله أن يصفح عنه ، ولكن الرجل لم يرق قلبه ، وقال له : أُمى مغتلمة كما كنت تقول إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحدا ! وتفقت ذهنه عن أبشع فنون التعذيب ، فأمر بتنوير أشعلت فيه النيران ،

وجعل يقطع من جسم ابن المقفع شريحة بعد شريحة . . وهو حى . . ويلقى بالشريحة فى التنور ليرى المسكين أطرافه وهى تقطع ثم تحرق ، قبل أن تحرق بقيته دفعة واحدة آخر الأمر .

على هذا النحو البشع . تم القضاء على قبس من النور الوهاج أضواء فى سماء الثقافة العربية علماً غزيراً ، وحكمة بالغة ، وبلاغة فائقة . ولم يكتمل بعد عمره أربعين ربيعاً . وصفه الجاحظ فقال « كان جواداً فارساً جميلاً » وقال عنه محمد بن سلام : « سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع » .

ويقول عنه أحمد أمين : إنه من أقوى الشخصيات فى عالم الأدب العربى قوى فى خلقه ، قوى فى عقله وعلمه ، قوى فى لسانه أما خلقه فنبل وكرم ، وتعهد لذوى الحاجات يواسيهم ، وتقدير دقيق للصدقة ، ومراقبة شديدة لنفسه يحملها على الأجر والأنبل ، ورغبة شديدة فى إصلاح الراعى والرعية خلقياً واجتماعياً . . إلى ظرف الخاصة ، والتمسك بأداب اللياقة ، ومراعاة الدقة فيما يتطلبه الذوق .

نهاية فاتح السند

وأنت تصوم في اليوم العاشر من رمضان لا مناص من أن تطوف بك ذكرى هذا اليوم المجيد القريب^(١) ، ولابد أن تسترجع أحداثه وتستعيد وقائعه ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، فتستشعر في وجدانك شيئاً من الفخر والإعجاب بهذا النفر من أهلك وعشيرتك وقد خلعوا رداء الذل والضعف والخوف ، ثم أمدهم الصوم بطاقة روحية قوامها الصبر والجلد . . وأبدلهم الله من بعد خوفهم أمناً . . ومن بعد ضعفهم قوة وعز ما . فانقضوا على عدوهم يغسلون عار الهزيمة .

ولكنني لن أسرد عليك شيئاً من أحداث هذا اليوم المجيد القريب فقد فاضت بها أقلام الكتاب والمعلقين . بل سأغوص بك في بطون التاريخ لنعيش معاً وقائع يوم شبيه ليومنا القريب وإن باعدت بينهما فروق الزمان والمكان ، فيبينهما من فروق الزمان ثلاثة عشر قرناً أو تزيد ، وبينهما من فروق المكان ما هو قائم بين بلاد السند ، وبين هضبة الجولان وصحراء سيناء ، وما بينهما من وجوه الشبه فإنه موضوع حديثنا اليوم ، فكلاهما وقع في العاشر من رمضان وكلاهما حقق للمسلمين نصراً وعزاً ، وإن كان أولهما لم يأخذ حظه من الشهرة والذبيح عند جمهور المسلمين ، فليس هذا ذنب اليوم المقصود ، ولكنه مسئولية جمهرة الكتاب الذين تعودوا على التركيز على المعارك الكبرى اللامعة في تاريخ

(١) يوم العبور المجيد في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

الإسلام فهم لا يعملون من الحديث عنها وترديد أعبادها . وليس في هذا من مأخذ بشرط أن يواكبه اهتمام آخر بغيرها من المعارك والملاحم والأيام المجيدة في تاريخنا العظيم ، ولك أن تعجب بهذه الحظوظ التي تفرض أحكامها على الأيام كما فرضتها على الأفراد والأشخاص ، فمنها ما هو شهير ذائع الصيت ، ومنها ما هو محروم من أدنى نصيب من الشهرة والذيع . ولقد شاء حظي أن أكون نصيراً للمظلومين والمضطهدين والمحرومين سواء أكانوا بشراً يتحركون أم جماداً ثابتاً أم أياماً مستكنة في عمر الزمان ، ولهذا رغبت في أن أكشف لك الستر عن وقائع هذا اليوم المجيد البعيد ، وأجلو لك ما سبقه من ظروف ، وما دار حوله من أحداث وما انتهى إليه من نتائج .

في بلاد السند

والعاشر من رمضان الذي أقصده وقع في أخريات القرن الهجري الأول . في زمن انطلقت فيه كتائب الفتح الإسلامي شرقاً وغرباً فبينما جيوش موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد تعبر المضيق إلى فاندلوسيا (الأندلس) ، كانت جيوش قتيبة بن مسلم تغزو فيها وراء النهر وتلامس تخوم الصين ، كان ذلك في زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ،^(١) وما إن تولى الحجاج بن يوسف الثقفي حكم العراق سنة ٨٦ هـ حتى يمم بصره نحو الجنوب حيث بلاد السند ، بوابة القارة الهندية ذات الحضارة القديمة والثروات الهائلة والطرق المفتوحة إلى جنوب شرقى آسيا .

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تتجه فيها أنظار العرب إلى بلاد السند ، فقد كان للعرب الجاهليين اتصالات تجارية بأصحابها براً وبحراً ، حتى تولد

(١) سادس خلفاء بنى أمية وتولى الخلافة فيما بين عامى ٨٥ ، ٩٦ هـ .

لدى العرب إمام كاف بأحوالها وظروفها الداخلية ، وفى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه تمكن الحكم بن أبى العاص من الوصول بحرراً إلى بعض سواحل الهند ، وشجعت الغنائم الهائلة التى عاد بها على مواصلة الكرة ، فبعث بأخيه المغيرة إلى ميناء الديبل . الواقع على مصب نهر السند (على مقربة من مدينة كراتشى الحالية) فانتصر المغيرة وعاد سالماً غانماً ، وفى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه توجه الحارث بن مرة العبدى إلى هناك ولكنه قُتل وجميع من معه ، وفى عهد معاوية بن أبى سفيان غزا المهلب بن أبى صفرة ذلك الثغر ثم مضى حتى بلغ لاهور واشتبك مع أهلها ولكن دون نتيجة تذكر ، وظل المسلمون يوالون الإغارة على الأقاليم المحيطة بالسند بعد أن أصبحت ملجأً للثائرين والخارجين على سلطان الدولة الأموية ، فتحوا مكران وقندهار حتى إذا كان الحجاج ، بعث إلى مكران سعيد بن أسلم الكلابى فوثب عليه ثائران عريان فقتلاه ثم لجأ إلى (داهر) ملك السند فلقيا عنده كل ترحيب ومكرمة ، عندئذ بعث الحجاج يستأذن الوليد فى فتح السند وتأديب صاحبها داهر ، إلا أن الوليد لم يجبه إلى ما يريد ، ولعله كان مشفقاً على جيوش المسلمين من اتساع الفتوح ، وبقي على رفضه حتى كانت واقعة أخرى ازتكبها داهر فجنى بها على نفسه وأخرج الخليفة عن تحفظه ، إذ كانت سفينة عربية تمخر عباب خليج عمان وهى تحمل على ظهرها زوجات وبنات تجار عرب ماتوا فى جزيرة الياقوت (سيلان) فانقض عليها قراصنة من الديبل فاستولوا على السفينة واعتدوا على النساء وأسروهن ، فأرسل الحجاج إلى داهر محتجاً وطالباً تخليص السبايا وإرسالهن إلى بلادهن ولكن «داهر» ركب رأسه واستخف برسالة الحجاج فحق عليه العقاب ، عندئذ أذن الوليد للحجاج بفتح السند ، فعهد بهذه المهمة الجريئة إلى زوج ابنته وابن أخيه ، الشاب الجسور محمد بن القاسم ، ولم يكن قد جاوز العشرين وجهزه بجيش قوامه ستة آلاف من خيرة جند الشام والعراق ومعهم عدد مماثل من راكبي الجمال ،

يتبعهم قطار من ثلاثة آلاف جل يحمل كل ما يحتاجه الجند من مئونة حتى الخيوط والإبر والمسال وكان من معدات الجيش عدد من آلة المنجنيق المخصصة لرمى القلاع والحصون والأسوار بالحجارة وكرات الحديد ، وكان أكبرها منجنيقاً ضخماً يسمى (العروس) يعمل على تشغيله خمسمائة رجل وسيكون لهذا العروس شأن كبير في سير المعارك .

الزحف الكبير

وبدأ البطل الشاب زحفه الكبير سنة ٩٢ هـ فعبر مكران حتى بلغ الديبل فحاصرها وبدأت أولى ملاحم القتال بعد أن حاصر المدينة وانهمرت عليها قذائف المنجنيق ، وعلم محمد بن القاسم فيما علم أن الهنادكة يعتقدون في طلسم يستقر تحت العلم الأحمر الأكبر الذى يرفرف فوق برج المعبد القائم وسط المدينة ويتصورون أن في الطلسم سر قوتهم ، فأصدر محمد أوامره إلى (العروس) أن تركز قذائفها على الطلسم المزعوم ، وبدأت قوائم البرج تتهاوى وأحجار المعبد تتساقط . . والهنادكة في ذهول من أمرهم ، واكتشفوا كم كانوا مخدوعين في أصنامهم فتحطمت همهم وانهارت روحهم المعنوية فاستسلموا للقائد المسلم فدخل المدينة وقد تردد في جنباتها التهليل والتكبير ، ولم تأخذ نشوة النصر والظفر برأسه . وظل مقيماً على مواثيق الفتح التى بشها الخلفاء الراشدون . ومنع جنوده من إيذاء أهلها ، وعاملهم معاملة طيبة كريمة بقيت ماثلة في أذهانهم حتى بعد أن غادرهم . وترك في المدينة حامية للدفاع عنها ، وتقدم ببقية جيشه فعبر بهم نهر السند إلى مدينة (نيرون) فلما وصلها أتاه وفد كهنتها البوذيين وأبرزوا له أماناً صدر إليهم من الحجاج ، فأمنهم ودخل المدينة دون قتال وفي نيرون بنى المسلمون مسجداً واختطوا مساكن لهم .

ومضى محمد بن القاسم يفتح المدن التى في طريقه دون أن يلقي مواجهة

تذكر من داهر ملك السند الذى كان يعد العدة لهذا اللقاء الحاسم مع بداية شهر رمضان من عام ٩٤هـ وتمكن داهر من تجميع جيش قوامه خمسون ألف فارس وتحصن وراء أسوار مدينة (راور) استعدادا للقاء جيش المسلمين . وكان شهر رمضان يوافق شهر يونيو وقد بلغ الحر درجة لا تطاق . . ولكن جيش المسلمين الصائمين لم يأبه لهذا القيظ الفاتك . ولا بسهام العدو التى بدأت تنهمر كالطرر ومضى محمد بن القاسم يقيم جسراً على نهر مهران تحت ستار الليل . ولم تشرق الشمس حتى وجد المسلمون أنفسهم وجهاً لوجه أمام أكبر جيش وأعظم قوة اعترضت طريقهم منذ وطئت أقدامهم أرض السند .

تلفت محمد بن القاسم إلى داهر فوجده على ظهر فيل ضخم يتقدم صفاً طويلاً من الفيلة . (المدرعة) التى تثير الرعب والفرع في النفوس ، وشعر المسلمون بتفوق العدو عليهم في العدد والعدة ، ولكنهم لم ينكصوا أو يمحفلوا أو يتراجعوا ، فقد كانت الشهادة لإحدى الحسينيين اللتين ينشدونها . وفى اليوم السادس من رمضان شد المسلمون النكير على عدوهم . واستمر القتال سجالاتاً أربعة أيام ، وفى اليوم (العاشر من رمضان) قاد داهر المعركة بنفسه بعد أن لا حظ تقدم المسلمين ، وقاد صف الفيلة ليث الرعب في نفوس أعدائه . ولكن الحمية ثارت في نفوس المؤمنين الصائمين . فانقضوا عليه في بسالة منقطعة النظير ورموا الفيل الذى يركبه داهر بسهم نافذ فذعر الفيل وولى هارباً ، ظل داهر يقاتل راجلاً إلى أن قبض عليه جندي مسلم فقتله ، وما إن غربت شمس اليوم حتى كان المسلمون قد فتحوا الحصن ودخلوه ظافرين مكبرين .

نهاية بطل

وتوالى انتصارات محمد بن القاسم ودانت له كبريات المدن ، حتى بلغ

«الملتان» أكبر مدن السند الأعلى وأحصنها على الإطلاق ، فقاتله أهلها وقاوموه وطال حصار المسلمين للمدينة حتى نفذت مشورتهم ، ثم أقبل رجل مستأمن فدلهم على مدخل الماء الذى يشرب منه أهل المدينة فغوره ابن القاسم ، وأرغمهم بذلك على النزول على حكمه ، ولم تلبث أن خضعت «الملتان» وسلمت ، وفى ذلك الحين تلقى البطل الشاب نبأ وفاة عمه الحجاج فأوقف الفتوح وعاد إلى حصن (راور) . ثم أتاه نبأ وفاة الخليفة الوليد وتولية أخيه سليمان بن عبد الملك . فأوجس ابن القاسم فى نفسه خيفة من الخليفة الجديد ، لأن الحجاج كان من القادة الذين أيدوا الوليد فى نقل ولاية العهد إلى ابنه بدلا من أخيه سليمان ولم يجد الخليفة الجديد من يصب جام غضبه عليه بعد وفاة الحجاج سوى صهره وابن أخيه فاتح السند محمد بن القاسم . فأمر بعزله عن قيادة الجيش وتسفيره مقيداً فى الأغلال إلى العراق . وقبل مغادرته خرج أهل السند ييكونه وييكون عدله وسماحته وشهامته ونخوته . وييكون قبل ذلك شبابه الغض الذى سفكه سليمان عندما أمر بتعذيبه حتى الموت . ثم فصلوا رأسه عن جسده وبعثوا بها إلى سليمان لكى تهدأ ثائرته ولم تذهب جهود البطل المسلم عبثاً . فقد فتحت أبواب القارة الهندية للدين الإسلامى ، وتولى سكان السند بعد الفتح إلى اعتناق الإسلام طواعية واختياراً . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح هذا الإقليم ضمن أجزاء العالم الإسلامى . وأصبحت ملتان مدينة عالمية ، ووضعت الأسس الأولى لقيام حكومة إسلامية . ومن السند انتشرت السيادة الإسلامية إلى سائر أنحاء شبه القارة الهندية وانتشر الإسلام إلى بلدان جنوب شرقى آسيا . ومن الحقائق التى تثلج الصدر أن هذه الفتوح الجديدة تمت على يد «عمرو» بن محمد بن القاسم الذى سار سيرة أبيه فى الشجاعة والسماحة والنخوة . واسترد البلاد التى عادت إلى الكفر بعد مصرع أبيه .

الثقافة العربية

ولسوف تمضى ثلاثة قرون تعيشها السند فى ظل الخمول ، حتى ينهض

لفتحها مرة أخرى محمود بن سبكتكين (التركي) الذى أسس دولة فتية شملت الجزء الأكبر من فارس وبلاد ما وراء النهر ثم امتدت حتى شملت بلاد الأفغان وشمال الهند ، وبعد محمود توالت على بلاد الهند دول إسلامية كثيرة إلى أن كان القرن السادس عشر حيث قامت فيها إمبراطورية إسلامية مغولية ظلت قائمة حتى منتصف القرن التاسع عشر .

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الوجود التركي والمغولى إلى ضعف الوجود العربى واندثار اللغة العربية في شبه القارة الهندية ، فمعظم الجيوش والعناصر والدول التركية والمغولية كانت في معظمها حديثة عهد بالإسلام ، وقد نقلت معها الثقافة الفارسية ومظاهر الحياة التركية والفارسية والمغولية ، ولهذا انتشرت في المجتمع الإسلامى بالهند اللغة الفارسية (لغة الثقافة في ذلك العصر) واللغة الأوردية ولم تنتشر اللغة العربية ، وبالتالي لم تزدهر الثقافة العربية في الهند ازدهارها في الأقاليم والدول الإسلامية الأخرى وساعد على هذا أن معظم العلماء والشيوخ الذين وفدوا على الهند كانوا من علماء ماوراء النهر المشغوفين بالحضارة اليونانية والثقافة الفارسية ولهذا تأثرت الثقافة الإسلامية في الهند بهذه البصمات ، ولم تقم على أسس سليمة قوية من الثقافة العربية ، ولكن ليس معنى ذلك أن الهنود لم يعرفوا اللغة أو المؤلفات العربية . بل لقد عرفوها وانتشرت بينهم وتعلمها الكثيرون منهم وألفوا بها . ولكن الذى حدث أنها كانت أقل انتشاراً وتأثيراً في المجتمع الإسلامى الهندى إذا ما قورنت ، بالثقافتين الفارسية والتركية المغولية .

ومهما بلغت درجة الثقافة العربية في المجتمع الإسلامى بالهند فإن ضعفها يرجع إلى زوال الوجود العربى منها بعد نكبة محمد بن القاسم ، ولك أن تتخيل مستقبل اللغة العربية والثقافة العربية في هذه البلاد الشاسعة لو قدر لهذا البطل الجسور أن يبقى في الهند وينهج فيها النهج الذى سلكه قادة الفتح الإسلامى في الشام ومصر وأفريقية فكانت هذه كسباً للعربية لساناً وحضارة وثقافة .

صاحب التنوير

ما تخيلت نفسى يوما فى موقع من مواقع السلطة . . ولا تمنيت يوما أن أكون واحدا من رجالها . . ولا أقول ذلك قليلا من شأن السلطة ، ولا تهوينا من أمر رجالها . . فالسلطة ضرورة من ضرورات المجتمع الإنسانى ، لتطبيق الشرائع ، وصيانة الأموال والأعراض ، وحفظ النظام والقانون ، وإدارة شئون الرعية ، وبدونها تُنتهك الحرمات وتستباح الحقوق وتضيع الواجبات . .

ولكن . . كل امرئ ميسر لما خلق له . . فلم تيسر لى الصفات والشروط التى يجب توفرها فيمن يريد أن يتولى أمر الناس وهناك صفات يجب أن يتحلى بها مثل الحزم والحسم . . والضبط والربط . . والالتزام بقواعد العدل والإنصاف ولو تعارضت مع العواطف والأهواء . . كذلك فإن للسلطة إغراءها وبريقها الذى يخطف الأبصار ، ويجذب المنتفعين وطلاب الحاجات ، فيتزاحمون على بابك مادمت عليه قائما . . فإذا تخليت أو أقصيت . . لا قدر الله . . انفضوا من حولك وتركوك وحيدا تنعى الجحود والنكران .

تلك صورة من صور الضعف الإنسانى ، تراها فى كل زمان ومكان ، وتجدها ملازمة لكل من ترقى صعدا فى معارج الجاه ثم هبط بعد حين ، وقد دفعنى ذلك إلى النفور من هذه الكوميديا السوداء . . فما أقسى أن ترى إنسانا يهبط بعد عز ، ويخلد إلى زوايا النسيان بعد أن كان مقصدا وملاذا .

هناك سبب آخر باعد بينى وبين الاقتراب من السلطة ، ويرجع إلى اعتقاد

دفين بأن رجال القلم والفكر لا يصلحون للحكم ، بل لا يصلحون لممارسة أى شىء إلا فن الكتابة والتعبير . . ولو استرجعت ذاكرتك أسماء بعض الأدباء الذين مارسوا شيئاً من السلطة ، فسوف تكتشف أنهم أخفقوا في ذلك إخفاقاً ذريعاً . . ولقد رسخ هذا التصور في نفسى لأننى قرأت في سن مبكرة قصة حياة الأديب الكبير محمد بن عبد الملك الزيات (صاحب التنوير) الذى انتقل من دولة الأدب والشعر إلى دولة الحكم في البلاط العباسى ، فتحولت رفته إلى عنف ، وصارت عذوبته بطشاً وعذاباً لكل من وقع في قبضته ، حتى نصب ما في فؤاده من قطرات الرحمة والعطف والإنسانية ، وبلغ من جبروته أنه استحدث آلة أسماها (التنوير) لتعذيب ضحاياه ، فارتبط اسمه بهذه الآلة الجهنمية ، وشاء الله أن تنتهى حياته بين أسياخها وأسنانها الحادة فتمزق جسمه وتنهش لحمه ، ويتذوق قسوتها كما أذاقها لضحاياه .

وربما ربطت ظروف النشأة المشابهة بينى وبين هذا الأديب الكبير ، فكلانا ينتمى إلى أسرة تحترف التجارة ، وكلانا جرفه حب الأدب فابتعد به عن حرفة الآباء ، ولكن ما أسرع أن افترقنا . . فقد مضى ابن الزيات إلى البلاط ليعتلى سدة الوزارة ، منساقاً وراء طموحه في المجد والسؤدد ، وبقيت على ولائى لعرش الكلمة راضياً بما قسمه الله لى من متاع الدنيا .

بداية :

كان محمد بن عبد الملك الزيات ابناً لتاجر كبير من تجار بغداد ، وكان أبوه . . كما يبدو من اسمه . . يتولى توريد الزيوت والمواد الغذائية إلى قصر الخلافة إبان عصر الرشيد ، فجنى ثروة طائلة جعلته في مصاف كبار تجار الكرخ ، وكان بالطبع يأمل في أن تتواصل حرفة التجارة في وريشه ، لولا أن الصبى أصابته لوثة الأدب والفن التى اجتاحت بغداد في عصرها الذهبى ،

فتلاطمت فيها تيارات العلم والثقافة ، وازدهرت فيها الفنون والمعارف ، وتزاحم عليها العلماء والمفكرون والشعراء والكتاب من كل صوب ، في هذا المناخ المترع بأجواء العلم نشأ الصبي ، وعبثا حاول أبوه أن يغيره باحتراف التجارة والإقلاع عن هواية الأدب - ويروى لنا صاحب (الأغاني) حوارا دار بين الوالد العطوف والصبي المتمرد يكشف لنا عن مفهوم كل منهما .

قال الأب : والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك ، وليضرنك ، لأنك تدع عاجل المنفعة (يقصد التجارة) وما أنت فيه مكفى ، ولك ولأبيك فيه مال وجاه ، وتطلب الأجل الذى لا تدرى كيف تكون فيه .

فقال الابن : والله لتعلمن أبنا ينتفع بها هو فيه . . أنا أم أنت ؟

ولقد صدقت نبوءة الاثنين . . وانتفع الابن بعلمه في حقل الأدب فحقق لنفسه مكانا مرموقا واسما ذائعا وثروة طائلة . . وصدق حدس الأب . . حين خسر الابن كل ماجنه ودفع حياته ثمنا للطريق الذى مضى فيه . . بل ثمنا لانحرافه عن طريق الرحمة والإنصاف الذى ينبغى على أى أديب أن يسلكه ولا ينحرف عنه .

لقد مضى الشاب الطموح إلى قصر الخلافة باحثا عن مكان متواضع بين جهابذة العلم والأدب من أمثال الجاحظ والأصمعي والفراء ، يسمع منهم ويأخذ عنهم حتى لفت إليه الانظار بعبقريته المبكرة ، فأصبح حجة ومرجعا في علوم اللغة ، وفيما يرويه المؤرخون عنه ما يؤكد ذلك .

فيقول البغدادي : « إن أبا عثمان المازني لما قدم بغداد أيام المعتصم ، كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علم النحو ، فإذا اختلفوا فيما يقع فيه شك ، يقول لهم المازني ، ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب (يقصد الزيات) اسألوه واعرفوا جوابه ، فيفعلون ، فيصدر الجواب من قبله بالصواب الذى يرتضيه المازني ، ويقفهم عليه .

وما هي إلا سنوات قلائل حتى أصبح الشاب من أبرز كتاب الديوان ،
وبدأت أشعاره تأخذ طريقها إلى الأسماع . . فقال في المديح والهجاء والفخر
والغزل . . وكان يتمتع بنزعة ساخرة وحب للدعابة مع الأصدقاء .

انظر إلى هذه الأبيات التي قالها ساخرا من صديقه عيسى بن زينب وكانت
له أنف تشغل نصف وجهه .

يا أنف عيسى جزاك الله صالحةً	وزادك الله إشراقا ومتسعا
حصنٌ حصينٌ وعز لو تناوله	كسرى الملوك أنو شروان لامتنعنا
تركك عيسى فما عندي مخاطبة	له وخاطبت أنفا طال وارتنعا
رأيت أنفا ولم أعلم بصاحبه	فقلت : من صاحب الأنف الذى طلعا
قالوا فتى غاب فيه ، قلت واعجبي	ما إن رأى مثل ذا راء ولا سمعا

الوزارة :

ولعب الحظ لعبته الخالدة في نقل الزيات من مصاف الأدباء والشعراء إلى
منصب الوزارة للخليفة المعتصم الذى كان نصيبه ضئيلا من العلم والمعرفة ،
مما أتاح لأديب فحل مثل الزيات أن يستحوذ على شئون الدولة فيصبح
صاحب الكلمة النافذة في مملكة بنى العباس ، أما المصادفة التى دفعت به إلى
الوزارة فيرويها ابن خلكان كما يلي :

« كان أحمد بن عمار البصرى وزيرا للمعتصم ، فورد على المعتصم كتاب
من بعض العمال ، فقرأه الوزير عليه ، وكان فى الكتاب ذكر (الكلا) فقال له
المعتصم : ما الكلا ؟ فقال الوزير : لا أعلم ، وكان قليل المعرفة بالأدب ،
فقال المعتصم خليفة أمى ، ووزير عامى !! وكان المعتصم ضعيف الثقافة ،
ثم قال : أبصروا من الباب من الكتاب ، فوجدوا محمد بن الزيات المذكور ،

فأدخلوه عليه ، فقال له : ما الكلاء؟ فقال : الكلاء العشب على الإطلاق ، فإن كان رطباً فهو الخلا ، فإذا يبس فهو الحشيش ، وشرع في تقسيم أنواع النبات ، فعلم المعتصم فضله ، فاستوزره وحكمه وبسط يده .
وأصبح ابن الزيات وزيراً . .

وحدث التحول الكبير في حياته بعد أن غادر دولة الأدب إلى دولة الحكم ، وأصبح سادناً للسلطة بعد أن كان خادماً للكلمة ، وما لبث أن قبض على زمام الحكم بيد من حديد ، فاستبد بشتون الدولة ، وجعل شعاره في تصريف الأمور تلك القولة الشائعة التي نسبت إليه فكانت وبالا عليه : « الرحمة خورٌ في الطبيعة وضعف في المنة » ، وابتكر من ألوان العقاب والتعذيب ما يستفز المشاعر الإنسانية ، وذلك لإكراه خصومه على الاعتراف ، والتنكيل بأعدائه في أبشع صور التنكيل ، وقد أفاض المؤرخون في وصف آلة « التنور » التي صنعها لتعذيب الأشخاص الذين جاروا على أموال الدولة ليرغمهم على ردها يقول ابن خلكان :

« وكان ابن الزيات قد اتخذ تنوراً من حديد ، وأطراف مساميره المحدودة إلى الداخل ، وهي قائمة مثل رؤوس المسلات ، وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال ، فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه ، فيجدون لذلك أشد الألم ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة ، وكان إذا قال أحدهم : « ارحمنى أيها الوزير ! فيقول له : الرحمة خور في الطبيعة » .

وإن الإنسان ليعجب كيف أباح هذا الشاعر الرقيق والأديب المثقف أن يستخدم عقله في صنع آلة تعذيب وهو عمل السفاحين ومصاصى الدماء .

تبرير :

ومع بشاعة هذه الأعمال المنافية للأخلاق والفضيلة ، فإن ابن الزيات لقي

من الباحثين من يدافع عنه ، ويرر تصرفاته من خلال الظروف السياسية التي أحاطت بالخلافة على عهد المعتصم ، وما كان يفتقر إليه الخليفة من قوة الشخصية وصفات الحزم والعلم والدهاء التي كان يتمتع بها أخوه وسلفه المأمون ، الأمر الذي أتاح لابن الزيات أن يوغل في أسباب الطغيان دون أن يجد القوة التي تردعه ، ويضيف الباحث محمود الهجرسي في كتابه عن ابن الزيات تبريرا آخر ، وهو أنه كان مضطرا إلى انتهاج سياسة العنف للحفاظ على الأموال العامة ، وتدير شئون الحكم في مجتمع يضم أخلاطا من شعوب الأرض وأنماط مختلفة من العقائد والمبادئ ويضطرم بكثير من الثورات والانتفاضات والمبادئ الهدامة ، وكلها ظروف لا تصلح معها الرأفة والملاينة أو التهاون في محاسبة المصادرين ، ولو فعل ذلك لاتهم بالتفريط في حق الدولة ، ولشاعت الفوضى في الولايات والأمصار ، واستبد كل حاكم بولايته يتصرف فيها على هواه ويبدد من خراجها ما يشتهي . .

وهكذا . . نجد دائما في مبدأ الحفاظ على قوة الدولة التبرير لأعمال البطش والقهر والتعذيب التي ارتكبت ضد الأفراد .

خریف :

من كان يتصور أن يخبو هذا النجم الذي حلق في سماء بغداد على مدار عهود ثلاثة من خلفائها (المعتصم والواثق والمتوكل) ومن كان يظن أن يلقي ، وهو في خريف العمر مصيره البشع وبنفس الأداة التي ابتكرها واستخدمها في التعذيب . . وأن تتصاعد من صدره الممزق صيحات الاسترحام ، فلا يجد من يأبه له . . وإنما يسمع نفس العبارة التي كان يقولها لخصومه وهم يتمزقون ألما : « الرحمة خور في الطبيعة » .

تعالوا نقرب من هذا المشهد الأليم ، ونرى ستار الختام وهي تسدل على

حياة رجل ضل الطريق إلى عالم الأدب والشعر والكلمة الشريفة ، فانزلق إلى هاوية البطش والطغيان فلا بكث عليه الأرض . . ولا عفت عنه السماء .

يصف الطبرى نهاية محمد بن عبد الملك الزيات ضمن حوادث سنة ٢٣٣ هـ وهو العام الذى تولى فيه (المتوكل) الخلافة فأبقى ابن الزيات فى منصب الوزارة أربعين يوما . . وبعدها وقعت الفاجعة :

« ثم أمهله أربعين يوما فى الوزارة ، وبعد ذلك أمر إيتاخ (التركى) بأخذه وعذابه ، فبعث إليه إيتاخ ، فظن أنه دعى به ، فركب مبادرا يظن أن الخليفة دعا به ، فلما حاذى منزل إيتاخ قيل له : اعدل إلى منزل أبى منصور . فعدل وأوجس فى نفسه خيفة ، ثم أدخل حجرة وأخذ منه سيفه ومنطقته وقلنسوته ودراعته ، وأرسل إيتاخ ينهب داره وأخذ ما فيها من متاع ودواب وجوار وغلمان ، ووجه المتوكل إلى بغداد من قبض ما هنالك من أمواله وخدمه ، وأمر أبا الوزير بقبض ضياعه ، وضياع أهل بيته حيث كانت ، ولم يزل ابن الزيات فى حبسه مطلقا ، ثم أمر بتقييده فقيد ، وامتنع من الطعام ، وكان لا يذوق شيئا ، وكان شديد الجزع فى حبسه كثير البكاء ، قليل الكلام ، كثير التفكير ، فمكث أياما ثم سهر ومنع من النوم ، يساهر وينخس بمسلة ، ثم أمر بتنور من خشب فيه مسامير حديد فأدخل فيه وعذب به أياما ، ذكر الدنداني أن الموكل بعذابه قال :

« كنت أخرج وأقفل الباب عليه فيمد يديه إلى السماء جميعا حتى يدق موضع كتفيه ، ثم يدخل التنور فيجلس ، والتنور فيه مسامير حديد ، وفى وسطه خشبة معترضة ، يجلس عليها المعذب إذا أراد أن يستريح ، فيجلس على الخشبة ساعة ، فإذا سمع صوت الباب يفتح قام قائما كما كان ثم شدوا عليه ، فقال المعذب له : خاتلته يوما وأريته أنى أقفلت الباب ، ولم أقفله ، ثم مكثت قليلا ، ثم دفعت الباب غفلة فإذا هو قاعد فى التنور على الخشبة ،

فقلت : أراك تعمل هذا العمل ، فكنت إذا خرجت بعد ذلك شددت خناقك ، فكان لا يقدر على القعود واستللت الخشبة حتى كانت تكون بين رجله ، فما مكث بعد ذلك إلا أياما حتى مات .

النهاية :

واختلف في الذى قتل به ، ف قيل : بطح ف ضرب على بطنه خمسين مقرعة ، ثم قلب ف ضرب على ظهره مثلها ، فمات وهو يُضرب ، وهم لا يعلمون ، فأصبح ميتا قد التوت عنقه بغير ضرب ، وكان يُسمع قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه : يا محمد لم تقنعك النعمة والدواب الفرة ، والدار النظيفة ، والكسوة الفاخرة ، وأنت في عافية حتى طلبت الوزارة ، ذق ما عملت بنفسك ! فكان يكرر ذلك على نفسه ، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عنه عتاب نفسه فكان لا يزيد على التشهد وذكر الله ، فلما مات دُفعت جثته إلى ابنه سليمان وعبد الله وكان محبوسين ، وقد طُرحت الجثة على باب من خشب ، في قميصه الذى حُبس فيه وقد اتسخ ، فغسلوه على الباب ودفنوه ، وحفروا له فلم يعمقا ، فذكر أن الكلاب نبشته وأكلت لحمه .

انتهت رواية الطبرى . أما ابن خلكان فيقول : « إن المتوكل لما قبض على ابن الزيات أمر بإدخاله التنور ، وقيده بخمسة عشر رطلا من الحديد ، فقال : يا أمير المؤمنين ارحمنى ، ف قيل له : الرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول للناس » .

وبعد . . أ رأيت أننى كنت على حق عندما قلت لك في بداية هذا الحديث إننى لا أتمنى لنفسى أن تكون إلا حيث هى الآن . . وحتى نهاية العمر .

نكبة الأفشين

هذه صفحة من التاريخ السياسى . . لا يهم إن كانت مشرقة أو معتمة ،
فليس الهدف أن تثير في نفس القارىء الإعجاب أو النفور . . الرضا أو
السمخ . . ولكن المطلوب أن تثير في نفسه القلق والخوف حتى يخرج من
شرنقة السلبية إلى آفاق الوعي ، فيتفكر ويتدبر . . ويعرف كيف تجرى الأمور
في الأعلى . . نعم . . نريد من سكان السفوح أن يكونوا على بينة بما حدث .
ما أقل أن نعتبر . . إننا سرعان ما ننسى - ويجرفنا تيار الحياة بعنفوانه وشواغله
وطموحاته . . فنسكر وننتشى . . ولا نتذكر التجارب المريعة التى عاناها
الأسلاف إلا حين نتعرض لنفس المحن التى تعبرضوا لها . . فنفجع . .
ونسترجع شريط الذكريات ونردد في يأس أن التاريخ يعيد نفسه وهو قول
مغلوط نتعزى به عن غفلتنا . . لأن التاريخ لا يعيد نفسه أبدا . . وعجلة
الزمن لا تدور إلى الوراء ، وإنما تمضى إلى الأمام في تقدم مستمر . . ولو دار
التاريخ حول نفسه لتوقفت آلة الزمن ، فلا يكون هناك ارتقاء إلى أعلى . . أو
تقدم إلى الأمام . . وإنما تكون هناك حركة دائرية كحجر الرحى تنتهى إلى
حيث بدأت - إنها التاريخ يعيد المشكلات القديمة فتشابه أمام عيوننا ويخيل
إلينا أنها صورة كربونية لما وقع في الماضى . .

وأما تكرار لما قرأناه في الكتب ، فيغلب علينا اليأس ونقول في بلاهة إنه لا
فائدة من التقدم الإنسانى وإن التاريخ يعيد نفسه ، ولو أنصفنا مع الحقيقة
التاريخية لوجهنا اللوم إلى أنفسنا لأننا سمحنا للمحن والتجارب المريعة أن

تتكرر ، ولم تتدخل لتغيير مسارها بمقتضى التجربة التى مارسناها والخبرة التى اكتسبناها من قراءة التاريخ . . ولكن . . أين هو الإنسان الذى يعتبر من محن غيره . . ؟

إننا نقرأ فى الكتب المقدسة عن النهايات المساوية للطغاة والجبابرة الذين أذلوا قومهم وظنوا أنهم ظل الله على الأرض . . ومع ذلك فلا تزال الأرض تنبت فى كل يوم طغاة وجبابرة ومستبدين . . وثبت بالتقصى أن أعتى الحكام هم أكثر الناس قراءة للتاريخ . . أى أنهم لا يعتبرون ولا يتعضون . . والقرآن الكريم لم يسرد لنا قصص هؤلاء العتاة بقصد التسلية ورواية الحوادث للأطفال قبل النوم ، إنما يهدف إلى إيقاظ الأسم الغافلة من سباتها حتى تعرف حقوقها وتستخلصها من براثن الطغاة كى يعيش الناس أحرارا . .

فالتاريخ له هدف ، وله رسالة شريفة هى بث العبرة فى نفوس الناس فينظرون إلى واقعهم نظرة واعية ، لأن الإنسان لن يفهم نفسه وحاضره دون أن يفهم ماضيه ، ومعرفة الماضى تكسبه خبرة السنين الطويلة ، والتأمل فى الماضى يبعد بالإنسان عن ذاته ، فىرى ما لا يراه فى نفسه بسهولة من مزايا الغير وأخطائه ، ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه ، وأقدر على حسن التصرف فى الحاضر والمستقبل . . إننا لن نستطيع أن نفهم الأحداث التى تجرى حولنا إلا إذا بحثنا عن مسبباتها فى أغوار الماضى . . فالحاضر هو ابن الماضى . . والمستقبل نتاج طبيعى للماضى والحاضر . . فإذا توفرت لنا الرؤية التاريخية الناقدة الذكية استطعنا أن نستخلص القوانين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تنطوى عليها الحادثات الظاهرة - حتى ليذهب بعض المفكرين إلى اعتبار التاريخ كله « معاصرا » . . فلا خطوط فاصلة بين الماضى والحاضر والمستقبل . . لأن الحوادث تجرى فى مسارها بلا توقف كما تجرى المياه فى النهر من المنبع إلى المصب . . وكلما تعمقنا فى السباحة فسوف نكتسب

خبرة ودراية وقدرة على الفهم والاستنباط . . وسوف نتوصل إلى الحقائق الخفية التى تحرك الحوادث الجارية . . وسوف تتوفر لنا القدرة على الربط بين المقدمات والنتائج . . وسوف نحوز ملكة الربط بين العلة والمعلول . . وهى نقطة البدء فى التفكير العلمى السليم .

أشبهاء :

والقصة التى سأروها لك فى هذا الحديث ليست فريدة فى نوعها . . فلها أشباه ونظائر فى كافة مراحل التاريخ . . وربما - بعد أن تفرغ من قراءتها - وجدت لها شبيها فى الحوادث القريبة التى عاصرتها ورأيته . . وربما تقع بحذافيرها فى المستقبل المنظور . . وكل هذا يدعو إلى الأسى والحزن لأن بعض الناس لا يستوعبون العبرة مما وقع لغيرهم فيقعون فى نفس الحفرة التى وقع فيها مَنْ سبقهم على الدرب . . وكل هذا يرجع إلى الغرور الإنسانى الذى يصور لصاحبه أنه أقدر على الإفلات من المصير الذى وقع لغيره . . وينسى أن الحياة تجرى وفق سنن وقوانين لا تعرف المجاملة ولا المحاباة ولا الاستثناء . . فالسلطة المطلقة مفسدة مطلقة . . هذه حقيقة مطلقة دلت عليها حوادث التاريخ فى كل العصور وفى كل الأمم . . ومع ذلك فما أكثر الناس الذين يتكالبون على أبواب السلطة للتقرب من الطغاة والتزلف إليهم وتسويغ جرائمهم . . وينسون أن عجلة المقصلة تدور وسوف تقطع رقابهم . . وأن سيف الجلاد قريب ويتحرك بلا تفكير ولا روية . . إنهم يرون رؤوس غيرهم تطير فى غمضة عين وبمجرد إشارة من السلطان . . بلا تحقيق ولا سؤال . . ومع ذلك يزدادون تقربا وزلفى ظنا بأنهم بمنأى عن المصير المؤلم . . ولا يفيقون من سكرتهم إلا على سكين الجلاد تحز رقابهم فيتحدثون عن العدل والحق والقسطاس « !! » وهى أمور ظلت غائبة عن

ضمايرهم حين كانوا فى معية الطاغية - ولم يتذكروها إلا فى ساعة الكرب العظيم . . . وكثيرون من القادة والوزراء والشعراء والأدباء فقدوا حياتهم بفعل الدسائس التى تجرى فى بلاط الحكام . . . ومع ذلك . . . فما أكثر الواقفين على أبواب البلاط ينتظرون إشارة القرب من الحاكم لكى يغتربوا من خيراته غير عابئين لشوره . . .

قيادة :

وبطل القصة قائد من كبار القادة العسكريين الذين اعتمدت عليهم الدولة العباسية فى توطيد أركانها ومحاربة أعدائها ، وقدم لها من الخدمات الجليلة ما رفعه إلى مصاف الأمراء المعدودين ، وكان شأنه فى الدولة العباسية كشان الحجاج ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم الباهلى فى الدولة الأموية . . . وكشان أبى مسلم الخراسانى وعبد الله بن على وعبد الله بن طاهر فى الصدر الأول من الدولة العباسية . . . فكل هؤلاء القادة المحنكين بذلوا الجهد الجهد فى خدمة الدولة ، وقادوا الجيوش لإخماد الفتن والثورات التى أشعلها خصوم الدولة ، وحققوا لسادتهم انتصارات باهرة . . . ومع ذلك كان جزاؤهم - باستثناء الحجاج - الغدر والاغتيال والقتل على أيدي سادتهم . . . ودفعوا حياتهم ثمنا للصراعات التى كانت تجرى بين أمراء الأسر الحاكمة حول الحكم وولاية العهد . . . فمنذ ابتدع معاوية بن أبى سفيان سنة ولاية العهد لابنه يزيد فى حياته ، سار الخلفاء على نهجه مما فتح بابا للفتن والدسائس من جانب الأمراء الذين كانوا يرون أنهم أجدر وأحق بالحكم من غيرهم . . . وكان بعض الخلفاء يستشير بعض قادته وخاصته فى اختيار ولى العهد . . . فكان يشير عليه بما يمليه عليه ضميره أو بما تمليه عليه مصالحه الخاصة . . . أو بما يمليه عليه غباؤه وجهله بالحسابات الدقيقة فى الترشيح . . . فيأتى

الخليفة الجديد على غير ما أشار فيبدأ بالانتقام من كل الذين رشحوا غيره .

فالخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك استشار الحجاج في ولاية العهد فأشار عليه باختيار ابنه عبد العزيز دون أخيه سليمان بن عبد الملك ، ولكن «الوليد» اختار أخاه سليمان دون ابنه ، فلما تولى سليمان شرع في الانتقام من كل الذين لم يرشحوه ، وكان من حسن حظ الحجاج أن مات قبل تولى سليمان فأفلت من التنكيل ، ولم يجد الخليفة الجديد من ينتقم منه سوى ابن أخت الحجاج وزوج ابنته البطل العظيم محمد بن القاسم الذي كان يمضى في فتح بلاد السند والهند ، ويقاقل قتالا مستعرا من أجل إدخال الإسلام إلى هذه البلاد الجبلية الوعرة . . ولم يتورع الخليفة عن عزل ابن القاسم وتكليف واليه في العراق بأن يسوق ابن القاسم مكبلا في الحديد ويقطع رأسه . ولك أن تتصور هذا المشهد المأساوى . . مشهد بطل عسكرى يُخطف خطفا من ميدان الحرب ثم تقطع رأسه تشفيا لرغبة الانتقام عند حاكم ظالم وقد حدثك عن هذه النكبة حديثا مستفيضا في فصل سابق .

وفعل سليمان بن عبد الملك نفس الصنيع مع قائد آخر لا يقل عن ابن القاسم شجاعة وبسالة ، هو قتيبة بن مسلم الباهل الذي كان في ذلك الوقت يقود جيوش الإسلام لفتح بلاد التركستان - فيما وراء النهر - وهى الآن بعض الجمهوريات الإسلامية التى تحررت من النفوذ السوفيتى ، بعد أن فرغ من فتح بلاد الأفغان ، وكان قتيبة قد وقع في نفس الخطأ الذى وقع فيه الحجاج حين أشار على الخليفة الوليد بن عبد الملك بعدم اختيار سليمان فوقع عليه لعنة الانتقام من الخليفة الجديد ، فأمر بعزله ، وسلط عليه بعض المرتزقة فقتلوه غيلة وهو في حومة الوغى .

فلما جاءت الدولة العباسية وقع لها ما وقع للدولة الأموية من صراعات

حول العرش . وكان المنصور قد وعد عمه عبد الله بن علي بولاية العهد إذا هو قضى على جيوش الأمويين التي تركزت في شمال العراق بعد الانقلاب العباسي . وتحمس عبد الله بن علي للوعد ، فطارد فلول مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية حتى شنت شملهم وقضى عليهم قضاء مبرما ، فلما حانت ساعة الوفاء بالوعد نكص المنصور على عقيبه وتكرر لوعده ، فغضب عبد الله ابن علي وانقلب على المنصور حتى خُذل فأوى إلى إخوته بعيدا عن عيون المنصور ، ولكن المنصور لم يرقأ له جفن حتى قبض عليه واستخدم كل الحيل ، ثم دبر لعمه مكيدة انتهت بقتله خنقا دون مراعاة لتاريخه المجيد في خدمة الدولة .

الأفشين :

وبطل قصتنا لا يصل في شهرته إلى مستوى القادة الذين ذكرتهم لك ، وإن لاقى نفس مصيرهم ، واسمه حيدر بن كاوس ، أما لقبه فهو «الأفشين» . وهو لقب كان يطلق على ملوك «أشروسنة» وهي من بلاد الترك التي تحررت الآن من النفوذ السوفييتي . وكان والد حيدر ملكا على هذه البلاد ولكن وقع خلاف بينه وبين أبيه ، فخرج من بلاده غاضبا ورحل إلى بغداد واستطاع أن يصل إلى الخليفة المأمون وأن يزين له غزو بلاده انتقاما من أبيه ، فوجه إليها المأمون جيشا أزاح الأب عن الحكم وولى مكانه ابنه حيدر وحمل لقبه «الأفشين» . . ومن يومها صار الأفشين من الأمراء المقربين للمأمون وأحد كبار القادة الذين عهدت إليهم الدولة بقيادة جيوشها في محاربة الروم أو في إخماد الفتن المحلية . ومات المأمون سنة ١١٨ هـ وخلفه المعتصم فزاد اعتماده على الأفشين ، حتى صار أحد القواد الثلاثة الذين كانوا على رأس الجيش الإسلامي الذي ذهب لمقاتلة الروم في معركة «عمورية» وكسب

للإسلام وللدولة العباسية معركة من أكبر المعارك التاريخية . وأبلى فيها بلاء
لفت نظر أبى تمام فمدحه بهذه الأبيات :

قد لبس الأفشين قسطلة الوغى	محشاً بنصل السيف غير مواكل
وجردّ من آرائه حين أضرمت	به الحربُ حدّاً مثل حدّ المناصل
وسارت به بين القنابل والقنا	عزائمُ كانت كالقنا والقنابل
تراه إلى الهيجاء أول راكب	وتحت صبير الموت أول نازل

فلما دارت الأيام دورتها ، ولقى الأفشين مصير من سبقوه ، وأمر المعتصم
بصلبه وحرّقه بتهمة الكفر والإلحاد ، عاد أبو تمام فذمه في قصيدة طويلة
منها :

قد كان بؤؤه الخليفة جانباً	من قبله حرماً على الأقدار
فاذا ابن كافرة يُسرّ بكفره	وجداً كوجودِ فرزدقٍ بنوّار

وهكذا يميل ميزان الشعر مع اتجاه الدولة ، إن رضيت عن شخص فهو
الملاك الرحيم ، وإن غضبت عليه فهو الشيطان الرجيم . ولكن التبريزى
يقول : لم يكن الأفشين كافراً ولا منافقاً . وإنما كان رجلاً من الفرس اصطفاه
المعتصم لحسن طاعته وخدمته ، واعتمد عليه في مهام أموره ، حتى وكل إليه
مقاتلة بابك الخرمى فمضى إليه في ألوف وأسره . غير أن الحساد أفسدوا ما
بينهما ، فذكروا للمعتصم : أنه منطو على خلافك ، وقالوا للأفشين : إن
المعتصم قد عزم على القبض عليك ، فانقبض عنه حذراً من القبض عليه ،
فتحقق المعتصم — بانقباضه — ما كان أخبر به عنه ، فأخذه وأحرّقه وصلبه . .
الخ .

حظوة :

ولعلك فهمت من عبارة « التبريزى » أن الأفشين كان مقربا من الخليفة المعتصم . وكان موضع ثقته حتى إنه عهد إليه بإخماد ثورة بَابَك الحَرَمَى التى أزعجت الدولة العباسية منذ عصر الرشيد وقد فشلت كل الجيوش فى القضاء عليها ، ونجح الأفشين فيها اخفق فيه قادة سابقون مما جعله موضع حظوة عند المعتصم ، ولكن الحساد أوقعوا بينهما ، وأوغروا صدر كل منهما من الآخر ، فحل النفور بينهما محل الصفاء ، وتفهم منها أيضا ان الأفشين إنما راح ضحية لمؤامرة حيكت داخل البلاط العباسى ، وليس فيها ما ينم على أن الأفشين كان زنديقا كافرا كما وصفه أبو تمام ، وإن كانت جميع المصادر التاريخية أجمعت على أن السبب فى محنة الأفشين أنه كان يضرع الزندقة والكفر ويظهر الإسلام ، ويسعى إلى إزالة حكم العرب وإعادة دولة الفرس إلى سابق مجدها ، وإحياء الأديان الفارسية القديمة : الزرادشتية والمانوية والمزدكية ، وهى الأديان التى كانت سائدة فى بلاد الفرس قبل أن يدخلها الإسلام على عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب . وفى ذلك يقول كاتب معاصر :

هذا الأفشين صورة من صور كثيرة تعددت زمن سيطرة العجم على أصحاب السلطان العباسيين ، وكانوا كلما انقضت منهم دولة قامت دولة ، وكانوا جميعا لا يهتمون بالمسائل التى تخص العرب : لغتهم أو دينهم أو جنسهم أو قوميتهم إلا بالقدر الذى يجعلونه ذرا للرماد فى العيون ، ولذلك تفشت الزندقة ، وقويت الشعوبية ، وضعفت النعرة العربية ، وحاول القوم أن يعيدوا دولتهم كما كانت قبل أن يهدمها الإسلام .

ومعنى ذلك أن محنة الأفشين إنما وقعت فى إطار « هوجة » فارسية عامة هدفها إعادة عقارب الساعة إلى الوراء ، والانتقام من العرب الذين فتحوا بلادهم وقضوا على أديانهم ، واستأصلوا ملوكهم الذين كانوا يدينون لهم بالألوهية ، وينظرون إليهم على أنهم أشخاص مقدسون انحدروا من أصلاب

الآلهة ، وحقد الفرس على الدولة الأموية لأنها كانت عربية صرفة وتنحاز إلى العرب ، وتضطهد الموالى الفرس ، ولذلك اشتركوا في التنظيمات السرية التي أقامها دعاة العباسيين في خراسان حتى تمكنوا من تقويض الدولة الأموية وإقامة ملك العباسيين على أمل أن تتحقق لهم طموحاتهم في العهد الجديد ، ولكنهم اكتشفوا أن العباسيين لا يقلون «عروبة» عن الأمويين ، وأن انتقال الخلافة من هؤلاء إلى أولئك لم يحقق أحلامهم في قيام دولة فارسية في مظهرها وحقيقتها وفي سلطتها ولغتها ودينها .

ورأوا أن ذلك لا يتحقق والإسلام في سلطانه ، فأخذوا يعملون سرا على إحياء أديانهم القديمة التي لم ينسوها لما اعتنقوا الإسلام ، ولعبت في رؤوسهم الرغبة الدفينة في العودة إلى معتقداتهم ، وشجعتهم ساحة الخلفاء العباسيين على إظهار هذه المعتقدات على استحياء ، حتى إذا كان عهد المأمون أسفرت هذه الحركات عن وجهها ، وتفجرت في شكل انتفاضات وثورات أعلنت الخروج على الدولة ودين الدولة ، وكان أكبر هذه الحركات وأشدّها خطراً هي الحركة المعروفة باسم «الخُرّمية» التي تنتسب إلى زعيمها «بابك الخُرّمي» . . الذي ظهر في جبال أذربيجان في السنة الأولى من القرن الهجري الثالث ، وانقاد له جمع كبير من الزنادقة ، وتصدى لكل الجيوش العباسية التي ذهبت لقتاله ، واستطاع أن يسيطر على مناطق شاسعة في بلاد ما وراء النهر ، ودانت له الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان قذق ، وعسكر بجيوشه في همذان ، ومن هناك قطعوا الطريق وأخافوا السبيل وقتلوا الحجيج وعاثوا في الأرض فساداً . . واستمرت ثورة بابك الخُرّمي عشرين عاماً دوخ فيها جيوش المأمون والمعتصم ودمرها وقتل بعض قادتها .

وشاء القدر أن تأتي نهاية هذا الأفاق الملحد على يد الأفشين حيث بعثه المعتصم سنة ٢٢٠ على رأس جيش لجب — فلم يزل ينازله حتى قضى على ثورته وتمكن من أسرهِ وساقه إلى المعتصم بمدينة سامراء فقتله وصلبه ، وشاء

القدر أن يحاكم الأفيشين بنفس التهمة التي قاتلها وتصدى لها حتى قضى عليها . . . والتهمة هي إخفاء الزندقة على مذهب « الخزمية » . . فما هي هذه الخزمية ؟

وما هو تاريخ نشأتها ؟ وما معتقداتها ؟ وما حقيقة ارتباط الأفيشين بها . . ؟

معتقدات فارسية :

الخرمية أحد فروع الديانة المجوسية للفرس قبل الإسلام ، ومع ذلك ظلت قائمة بعد انتصار الإسلام ، ذلك أن الدولة العباسية اعتمدت اعتمادا تاما على العناصر الفارسية بغض النظر عن معتقداتهم ، وقامت بين الطرفين صفقة نفعية . . فالدولة العباسية أرادت أن تستخدم الفرس في تقويض الدولة الأموية وتستغل حقدهم على العرب ، والجماعات الفارسية اندمجت في التنظيمات السرية التي أقامها العباسيون في خراسان على أمل أن تكون لهم السيادة في الدولة بعد نجاح الانقلاب ، وأن تتحقق أحلامهم في استعادة مجدهم الذي قوضه الإسلام . . كانت هناك مصلحة مشتركة بين طرفين كل منهما يريد أن يستخدم الآخر . . ولم تكن الدولة العباسية غافلة عن نيات الفرس . فكانت تربص بهم وتكسر شوكتهم كل حين ، فلما انقضى عصر الفتوة العباسية وجاء عصر الخلفاء الضعفاء كشفت الحركات الفارسية عن وجهها ، فاندلعت الفتن والثورات والحركات الانفصالية في الأصقاع النائية . وتحولت هذه البقاع إلى أوكار لجذب العناصر التي شدها الحنين إلى الماضي فشهرت السلاح في وجه الدولة .

في ذلك يقول سيد أمير على في كتابه (روح الإسلام) كانت الولايات الشرقية من الإمبراطورية الفارسية في هذا الوقت موطنًا لقوميات مختلفة

ومذاهب دينية شتى ، ففى تلك الأصقاع لم يتجمع اتباع زرداشت الهاربون أمام الموجة الإسلامية فحسب ، بل تجمع ممثلو المذاهب الدينية الهندية المختلفة أيضا ، وقد ظلت هذه الآراء الغريبة والهرطقات العجيبة التى زعزعت أركان « الهيكل والقصر معا » . فى أيام أكاسرة الساسانيين المتأخرين حتى وجد كسرى أنوشروان نفسه مضطرا لأن يضع لها حدا بالسيف والنار ، غير أنها ظلت حية بالرغم من جميع هذه الاضطهادات . وهى آخر الأمر تتخذ مظاهر وأشكالا شتى لتعود إلى الظهور من جديد فى الإسلام ، فأطلت برأسها الراوندية والمزديكية والبابكية الخرمية ، كان ذلك إعادة للقضية القديمة فى التاريخ ، وكان على الإسلام أن يمر بعصور من الفوضى والمحن كما مرت بها المسيحية من قبل (من بداية القرن الثانى حتى نهاية القرن التاسع الميلادى) ظل هناك صراع لا ينقطع فى المسيحية بينها وبين المذاهب التى سبقتها من تلك الأفكار التى كانت تعود إلى الظهور بين الفينة والفينة بأشكال مختلفة ، وعلى يد شخصيات مختلفة أيضا .

وفى الوقت الذى كانت فيه هذه الطوائف تعتنق الإسلام ، فإنها حافظت على مفاهيمها البدائية الأولى ، كما ولدت بدورها مذاهب وأفكارا جديدة فى الإسلام ، فمن الحقائق الثابتة : أن الخصائص القومية لأفراد شعب ما ، والظروف المناخية التى يعيشون فيها ، والطبيعة الجغرافية للبلاد التى يعيشون فيها ، وتأثير المذاهب السابقة عليهم ، كل هذا يصيغ معتقداتهم ومبادئهم .

ويصدق هذا على المسيحية كما يصدق على الإسلام ، فمن إيران خرجت الأديان الثلاثة التى هى نتاج الظروف الطبيعية والبشرية لبلاد الفرس والجنس الأكرى بصفة عامة .

وجاء ظهور زرداشت - أول أنبياء الفرس - ليؤكد هذه الأفكار ويصوغها فى قوالب دينية ، فقال إن للعالم قانونا يسير عليه ، وإن له ظواهر طبيعية ثابتة

وإن هناك نزاعاً وتصادماً بين النور والظلمة ، والخصب والجذب ، وانتهى إلى أن للعالم أصليين أو إلهين هما : النور إله الخير ، والظلمة إله الشر ، وبقيت هذه الثنائية ، أو الثنوية ، قاعدة ثابتة في كافة الديانات الفارسية التي تلت الزرادشتية ، وأهمها الديانة (المانوية) التي ابتدعها (ماني) في بدايات القرن الميلادي الثالث ، فجاءت تعاليمه مزيجاً من النصرانية والزرادشتية ، وفي حين كان زرادشت يدعو إلى العمل والجد والكفاح وتعمير الأرض ، جنح (ماني) إلى الزهد واستعجال الفناء لما رآه في العالم من غلبة الشر ، فحرم النكاح ودعا إلى الرهبنة والفرار من العالم ، ووجدت الدولة الساسانية في هذه الأفكار الهروبية خطراً على نزعتها الحربية التقليدية فحكمت على (ماني) بالإعدام ، ولكن المانوية ذاعت في العالم المسيحي ووصلت إلى أوروبا وتغلغلت في الحركة الهرطقية التي قاومتها الكنيسة الرومانية بكل عنف عن طريق محاكم التفتيش ، كذلك تسربت المانوية إلى الإسلام وأصبح لها دعاة يروجون لها تحت ستار الإسلام .

وفي أواخر القرن الخامس الميلادي ظهر في بلاد فارس (مَزْدَك) ومعه دين جديد ذو نزعة اشتراكية ، فأباح الملكية العامة في النساء والأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ .

ويرى العلامة أحمد أمين أن شيئاً من أفكار مزدك قد تسرب إلى الإسلام في الناحية المالية فقط ، وظهر ذلك واضحاً فيما كان يدعو إليه الصحابي الجليل أبوذر الغفاري حين قال : « لا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا » . ويرى أحمد أمين في ذلك رأياً قريباً من آراء مزدك ، ولا يستبعد أن يكون أبوذر قد تلقى هذه الأفكار عن ابن السوداء - عبد الله بن سبأ - الذي يقول الطبري إنه لقي أبا ذر فأوعز إليه بذلك . ونحن نعلم أن ابن السوداء كان يهودياً من صنعاء أظهر الإسلام في عهد عثمان ، وطاف بالأمصار الإسلامية ينشر آراءه الفاسدة ليفسد

على المسلمين دينهم . ومن المحتمل أن يكون ابن سبأ تلقى هذه الفكرة الاشتراكية عن مزدكية العراق أو اليمن ، فاعتنقها أبو ذر عن حسن نية وصبغها بصبغة الزهد التي كانت تجنح إليها نفسه ، فقد كان رضوان الله عليه من أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم في الدنيا .

ولم يقتصر تأثير الديانات الفارسية القديمة في المجتمع الإسلامي على المعتقدات الدينية فحسب ، وإنما كان له أكبر الأثر في الناحية السياسية وعلاقة الشعوب بحكامها ، ذلك أن الفرس كان ينظرون إلى ملوكهم كأنهم كائنات إلهية اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، وخصهم بالسيادة وأيدهم بروح من عنده ، فهم ظل الله في أرضه ، أقامهم على مصالح عباده ، وليس للناس قبلهم حقوق ، وللملوك على الناس السمع والطاعة ، ويلاحظ أحمد أمين شَبَها في هذه الأفكار وما عُرف في أوروبا بنظرية « الحق الإلهي » وسادت فيها في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وينقل عن الأستاذ برون قوله :

لم تُعتنق نظرية الحق الإلهي بقوة كما اعتنقت في فارس في عهد الملوك الساسانيين . وقد كان الأكاسرة يزعمون أن لهم الحق وحدهم أن يلبسوا تاج الملك بما يجرى في عروقهم من دم إلهي .

وقد ورثت دولة الإسلام كل هذه المعتقدات الدينية والسياسية ، التي بقيت مستكنة في نفوس أصحابها رغم اعتناقهم الإسلام ، فكثير منهم أسلموا ولم يتجردوا من كل عقائدهم القديمة ، وبمرور الزمن صبغوا آراءهم القديمة بصبغة إسلامية ، فنظرة الشيعة الفرس في علي بن أبي طالب وأبنائه هي نظرة آبائهم الأولين في الملوك الساسانيين ، وثنوية الفرس كانت منبعها يستقى منه « الرافضة » . أضف إلى ذلك أن تعاليم زرادشت ومانى ومزدك أخذت تطل برأسها بين المسلمين في حركات شتى . وكان أخطرها حركة بابك الخرمي التي ظلت تعمل في الخفاء طوال قرنين من الزمان حتى إذا استشعرت ضعف

الخلافة وقوة النزعات العرقية والإقليمية بدأت تكشف عن وجهها القبيح ،
وتشهر السلاح في وجه الدولة العباسية لكى تعيد دولة الفرس بأديانها
ومعتقداتها وتقاليدها وآدابها .

تطرف :

وليس صدفة أن هذه الحركة الإلحادية الانفصالية وجدت فرصتها للظهور
في العصر العباسي ، لأن العباسيين - أثناء تدبيرهم السري لتقويض الدولة
الأموية - فتحوا قلوبهم لأرباب الديانات الفارسية القديمة ، الذين كانوا
يكنون للعرب والإسلام حقدا دفيناً ، ولكن القائمين على أمر الدعوة العباسية
في مرحلة التنظيم السري غضوا الطرف عن معتقدات هؤلاء المتطرفة المخالفة
لروح الإسلام ، وتساهلوا في أمرهم . وسمحوا لهم بالانضمام إلى التنظيمات
السرية على أمل أن يساعدهم في دحر عدوهم المشترك - الأمويين - ولم يفتنوا
إلى ما سوف تؤدي إليه هذه الشراكة من تهديد للدولة العباسية نفسها ، ومن
تربص لتقويض الإسلام نفسه .

والمعروف تاريخياً أن العباسيين اختاروا إقليم خراسان - عقر دار الفرس -
ليكون حقلاً لبث أفكارهم ، ومهدوا لتكوين حلقات التنظيم السري لبعده عن
دمشق حاضرة الدولة الأموية ، ولما تنطوى عليه نفوسهم من بغض للملوك بنى
أمية . وأشاع قادة الدعوة العباسية السرية أن أهل خراسان هم عماد الدولة وأن
لهم صفات وخصائص لا توجد في غيرهم ، ورفعوهم درجات فوق أهل
الأمصار الأخرى ، وكان الدعاة يذيعون ذلك في أهل خراسان ليستميلوهم
ويحملوهم على الانضمام إلى الدعوة والتضحية في سبيلها ليجنوا ثمارها بعد
نجاحها ، وبذلك حركوا عواطفهم الذاتية ، وهيجوا مشاعرهم القومية ،
وكان لقيام أبى مسلم الخراساني على أمر الدعوة أكبر الأثر في إذكاء نار

العصية الفارسية وإحياء الأمل في إعادة دولة العجم ، وكان الإمام إبراهيم - رأس التنظيم السرى العباسى - قد أوصاه بأن يجمع إليه العجم ويستكثر منهم ، ونصحهم أن يستعين بهم ويعول عليهم دون العرب ، فأقبلوا عليه أفواجا ، والتف حوله المسلم منهم وغير المسلم ، وكان أتباع الديانة الخزمية من أوائل الذين انضموا إلى الدعوة العباسية ، وأوسع لهم أبو مسلم فتسربوا إلى تنظيماتها على مستوياتها المختلفة ، واندسوا في حلقات قادتها ، وأثروا في نقبائها تأثيرا شديدا حتى كادوا يحرفونهم عن خطة الدعوة ، ويضلونهم عن الإسلام ، وأوشكوا أن يفسدوا عقيدة بعضهم ويجروهم إلى ملتهم تحت إغراء الإباحية في النساء والإقبال على المتعة واللذة . . وهى من أساسيات المعتقدات الخزمية . وقد أشار ابن الأثير في (الكامل) إلى أن تعاليم بابك خليط من المزدكية والخزمية والمجوسية ، فقد كان يعتقد بالحلول والتناسخ ، وكان يميز الإباحة في النساء ، والمشاركة في الحُرْم والأهل ، لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمتنع .

وكان من دعاة العباسيين من يؤمن بتعاليم الخزمية ويشر بها في خراسان . كذلك احتضنت الدعوة العباسية (الراوندية) وهم من الغلاة المتطرفين وكانوا يعتقدون أفكارا غريبة عن الإسلام ورثوها عن الديانات الفارسية مثل الحلول وتناسخ الأرواح وتأليه الأئمة . وقد روى البلاذرى في (أنساب الأشراف) أن قوما من أصحاب أبى مسلم الخراسانى كانوا يقولون بتناسخ الأرواح ، ويقولون : إن أمير المؤمنين يرزقنا ويسقينا فهو ربنا ، ولو شاء أن يسير الجبال لسارت ، ولو أمرنا أن نستدبر القبلة لاستدبرناها . .

ولا شك أن أبا مسلم الخراسانى ، وهو يقوم ببناء التنظيم العباسى السرى ، قد نجح في استمالة أرباب الديانات الفارسية القديمة واستكثر منهم ، واستظل بهم ، وفى طليعتهم الخزمية والراوندية . . فهل كان أبو مسلم

يعتنق هذه الأفكار سرا ، ويظهر الإسلام تقية ؟! هذا سؤال صعب . .
والجواب عليه يحتاج إلى أسانيد وأدلة ، لأننا نعرف أن هذا القائد المغوار لقي
مصرعه غيلة في مؤامرة حاكها جبار الدولة العباسية أبو جعفر المنصور لما
توجس خيفة من عظم قدر أبى مسلم ، وتحسس منه الخطر ، واقتنع أنه أدى
دوره في بناء الدولة وعليه أن يمضى إلى حيث يمضى كل حى . . ولهذا
يتوجب الاحتراز عند التشكيك في عقيدة هذا الشاب العبقري . . ومع ذلك
فهناك شواهد تاريخية تؤكد أنه لم يكن بعيدا عن تلك الحركات العنصرية
الإلحادية التى ضربت أطنابها في أركان الدولة .

فالدكتور حسين عطوان - وهو أستاذ أكاديمى متخصص في تاريخ الدولة
العباسية - يتبع تاريخ أبى مسلم الخراسانى منذ حياته الباكرة ويقول إنه كان
من غلاة الشيعة قبل انضمامه إلى الدعوة العباسية ، ويستند إلى الشهرستانى في
(الملل والنحل) الذى يقول : كان أبو مسلم صاحب الدولة على مذهب
الكيسانية - وهو أحد المذاهب الشيعية المبكرة - في الأول ، أى قبل انضمامه إلى
الدولة العباسية ، واقتبس من دعاة الكيسانية العلوم التى اختصوا بها وأحسن
منهم أن هذه العلوم مستودعة فيهم فكان يطلب المستقر فيه . . ثم يقول إن
أبامسلم استهوى الغلاة وغيرهم ممن ينتحلون الديانات الفارسية . . وقبلهم في
الدعوة .

فهل كان أبو مسلم الخراسانى يظهر الإسلام تقية ، ويضمّر الكفر والإلحاد
ويسعى إلى إحياء ديانات أجداده القدامى ؟

لا يوجد دليل موثوق على صحة هذه الأقاويل ، ونحن نعلم أن السبب
الرئيسى في اغتيال أبى مسلم هو حقد المنصور عليه وتحوفه منه ، ولو كان
المنصور - وكان يعلم خبايا النفوس - التمس من أبى مسلم ردة عن الإسلام لما
تورع عن استخدامها لتسويغ قتله . . ومع ذلك فلإن المصادر التاريخية تشير

إلى الجماعات الفارسية التي انتفضت عقب اغتيال زعيمها أبى مسلم ، وغالت في تقديسه حتى وصل بها الأمر إلى تأليهه ، وظهرت جماعة الراوندية والخزمية والأبومسلمية لتطالب بدم أبى مسلم وتزعم أنه لم يموت . يقول البغدادي في (الفرق بين الفرق) . . وزعموا أن الإمامة بعد السفاح صارت إلى أبى مسلم ، وأقروا بموته إلا فرقة منهم تدعى « أبو مسلمية » أفرطوا في أبى مسلم غاية الإفراط وزعموا أنه صار إلها بحلول روح الإله فيه وأنه خير من جبريل وميكائيل وسائر الملائكة ، وأنه حتى لم يموت ، وهم على انتظاره ، وإن الذى قتله المنصور كان شيطانا تصوّر للناس في صورة أبى مسلم . وقال الشهرستاني : إن أبا مسلم كان على مذهب الرزمية فساقوا إليه الإمامة وادعوا حلول الله فيه ، ولهذا أيداه الله على بنى أمية حتى قتلهم عن بكرة أبيهم . ونص المسعودى أن طائفة « الأبومسلمية » كانت من الخزمية وجعلوا الإمامة من بعده لابنته فاطمة ويدعون « الفاطمية » .

ولو صححت هذه الروايات لكان معناها أن العباسيين في طورهم الأول شجعوا العناصر الإيرانية على الانضمام إليهم بغض النظر عن معتقداتهم ونياتهم وطموحهم في العودة إلى الماضى ، فلما قويت شوكة الدولة تنهت إلى الخطر الذى يحقد بها فكانت توجه إلى هذه الجماعات ضربات متتالية ، وكانت نكبة البرامكة إحدى هذه الحلقات . ولكن الحركات الفارسية لم تهدأ ، وكلما فُتت فتنة قامت أخرى .

مقاومة الدولة :

والخزمية هى أخطر وأكبر هذه الحركات لأنها نجحت في استمالة قطاعات كبيرة من مجوس الفرس وشهرت السلاح في وجه الدولة على امتداد عشرين عاما ، واستطاعت أن تهزم كافة الجيوش التى بعثت بها الدولة لإخمادها ، ولم

تتحقق هزيمة الخرمية إلا على يد هذا القائد (الأفشين) الذى اتهم بعد انتصاره بأنه كان أحد اتباع الخرمية ، وكان يؤمن بمبادئها ، وكان يضم كراهة العرب والإسلام ويحلم بعودة المجوسية ، ويتبين فى أثناء محاكمته أنه كان يكتسب أحد زعماء المجوس واسمه مازيسار أثناء الحرب بينهما ، ويغريه بأن يتعاوننا على هدف مشترك ، هو دحر العرب والإسلام وإقامة الدين الأبيض (الخرمية) وينعى على بابك الخرمى أنه لم يتعاون معه فلقي مصرعه ، وقال فى رسالة له تم ضبطها : « لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيرى وغيرك ، فأما بابك الخرمى فإنه لحقه قتل نفسه ، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى لحقه إلا أن أوقعه ، فإن خالفت - أى خرجت على سلطة الدولة - لم يكن للقوم - أى للعرب - من يرمونك به غيرى ومعى الفرسان وأهل النجدة ، فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراك ، والعربى بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة واضرب رأسه ، والمغاربة أكلة الرأس ، والأتراك إنما هى ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيول عليهم جولة فتأتى على آخرهم ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم » .

وكانت هذه الوثيقة المكتوبة بخط الأفشين من أقوى أدلة إدانته والحكم عليه بالموت حرقا . .

ويصف الطبرى بابك بأنه كان من أبطال زمانه وشجعانهم عاث فى البلاد وأفسد ، وأخاف الإسلام وأهله ، وغلب على أذربيجان وغيرها ، وأراد أن يقيم ملة المجوس فقهره الله وأخذله ، وكان لسقوط بابك زنة فريح فى أنحاء العالم الإسلامى . وقد قبض عليه الأفشين وعاد به مصفدا فى الأغلال إلى سامراء عاصمة المعتصم ، فلما اقترب من المدينة وضعه الأفشين على ظهر فيل إمعانا فى إزاله ، وخرج الناس من كل صوب واصطفوا على جوانب الطرق لرؤية المتعبد الذى قاد حركة انفصالية إلحادية على امتداد عشرين عاما .

ويروى المؤرخ ابن الأثير في (الكامل) تفاصيل لإعدام بابك الخرمي في قصر الخليفة ، وقد أبى المعتصم أن يلقي بابك مصرعه إلا بيد سيافه الخاص ، فأمره المعتصم أن يقطع يديه ورجليه فقطعها ، فسقط ، فأمره بذبحه ففعل وشق بطنه ، وأنفذ رأسه إلى خراسان ، وصلب بدنه في سامراء ، وأمر بحمل أخيه عبد الله إلى إسحق بن إبراهيم محافظ بغداد ، وأمره أن يفعل به ما فعل بأخيه بابك ، فعمل به ذلك وضرب عنقه وصلبه في الجانب الشرقي بين الجسرين ، أما الأفشين فقد كافأه المعتصم على شجاعته ونجاحه في إخماد الحركة الخرمية ، والبسبه وشاحين بالجوهر ومنحه عشرين ألف درهم ، وعقد له على السند ، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه ويشيدون بشجاعته . فكان مما قاله أبو تمام :

بذل الجلاء البذل فهو دفين ما إن بها إلا الوحوش قطين
لم يقر هذا السيف هذا الصبر في هيجاء إلا عز هذا الدين
قد كان عزرة سؤدد فافتضها بالسيف فجعل المشرق الأفشين

مصرع الفحل :

إذا كان أبو تمام قد وصف الأفشين بأنه (فحل المشرق) فإن الأيام لم تمض طويلا حتى لقي فحل المشرق مصرعه بنفس الطريقة التي قتل بها خصمه بابك الخرمي . فكيف حدث هذا التحول الخطير ؟ وكيف انقلب البطل الظافر إلى عدو منبوذ يستحق عقوبة الموت ؟ يعزو ابن الأثير هذا التطور إلى الصراعات التي تجرى بين القادة العسكريين ، وطمعهم في الاستئثار بحكم الولايات الهامة في الدولة العباسية ، وكان مازيار بن قارن واليا على طبرستان ، ولكنه أظهر الخلاف والمرد على الخلافة ، فلما ظفر الأفشين ببابك وعظم قدره عند المعتصم طمع في ولاية خراسان ، فكتب إلى مازيار يستميله ويظهر له

المودة ، ويجرضه على المضى فى العصيان والتمرد ، فكتب المعتصم إلى عبد الله ابن طاهر يأمره بمحاربة مازيار ، وفى الوقت نفسه كتب الأفشين إلى مازيار يأمره بمحاربة عبد الله بن طاهر ، ويبدو أن هذه المكاتبات - بين الأفشين ومازيار - وقعت فى يدى عبد الله بن طاهر فبعث بها إلى المعتصم ليرى فى أمر الأفشين ما يراه . . واستطاع عبدالله بن طاهر أن يظفر بمازيار وسيق إلى سامراء ، وأمر المعتصم أن يجمع بينه وبين الأفشين ، فافر مازيار أن الأفشين كان يكاتبه ويحسن له الخلاف والعصية ، فأمر الخليفة بضرب مازيار أربعمئة وخمسين سوطا ، وطلب ماء للشرب فسقى فبات من ساعته ، أما الأفشين فقد أمر المعتصم بالقبض عليه ووضعوه فى الحبس لحين البت فى أمره .

ونفهم من هذه الرواية لابن الأثير أن سبب نكبة الأفشين هو الصراع بين قادة الجند ، وتدير كل منهم للأخر للإيقاع به . ولكن ابن الأثير لا يلبث أن يسوق لنا سببا آخر يرجع إلى المعاملات المالية ، وسطو الأفشين على أموال الدولة التى كانت تقع فى يده أثناء الحروب ، فهو يذكر عن حوادث سنة خمس وعشرين ومائتين : وفى هذه السنة غضب المعتصم على الأفشين وحبسه ، وكان سبب ذلك أن الأفشين كان أيام محاربة بابك الخرمى لا تأتیه هدية من أهل أرمينية وأذربيجان إلا بعث بها إلى أشروسنة (الموطن الأصلى للأفشين) وكان عبد الله بن طاهر يرصد هذه الأمور ويعلم بها الخليفة ، فكتب إليه المعتصم يأمره بإعلامه بجميع ما يحصل عليه الأفشين من أموال ، ففعل عبد الله ذلك ، فكان الأفشين كلما اجتمع عنده مال يجعله على أوساط أصحابه ويسيرهم إلى أشروسنة فوقعوا فى يدى عبد الله بن طاهر ففتشهم ووجد المال فى أوساطهم ، وقالوا إن المال للأفشين ، فأخذ المال وأعطاه الجند وكتب إلى الأفشين يذكر له ما حدث ، ويخبره بأنه لم يصدق أقوال القوم ، وأنه أعطى المال إلى الجند لأنه مال أمير المؤمنين . فكتب إليه الأفشين . إن مالى ومال أمير المؤمنين واحد ، وسأله إطلاق القوم ، فأطلقهم . فكان ذلك سبب الوحشة

بينهما ، وجعل عبد الله بن طاهر يتتبع الأفشين حتى أوقع به فيها كان بينه وبين مازيار من مكاتبات .

ثم يمضى ابن الأثير فى شرح تطور الخلاف بين الأفشين وسيدہ المعتصم فيقول : وتحقق المعتصم أمر الأفشين فتغير عليه ، وأحس الأفشين بذلك فلم يذّر ما يصنع ، فعزم على الهرب إلى الموصل ثم يعبر نهر الزاب إلى أشروسنة (موطنه الأصلي) ليستميل الخزر على المسلمين ، فلم يمكنه ذلك ، فعزم على أن يعمل طعاما مسموما ويدعو المعتصم والقواد ، فإن لم يحضر المعتصم عمل السم فعله فى القادة الذين يكيدون له . ولكن الجواسيس أسرعوا إلى المعتصم وأطلعوه على تدبير الأفشين ، فأمر المعتصم بإحضار الأفشين ، فجاء فى سواده فأمر بأخذ سواده ، وجبسه فى الجوسق ، وأمر بتشكيل محكمة لمحاكمته تضم ثلاثة من مشاهير الدولة هم : الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحمد بن أبى دؤاد قاضى قضاة المعتزلة ، وإسحق بن إبراهيم محافظ بغداد .

ووجهت المحكمة إلى الأفشين عدة تهم تم جمعها عن طريق الخصوم الذين كانوا يكيدون ويدبرون له الدسائس . وكانت التهمة الأولى أن الأفشين عمد إلى رجلين كانا قد وجّدا بيتا فيه أصنام فى أشروسنة ، فأخرجوا الأصنام منه ، وحولاه إلى مسجد ، وصار أحدهما إماما للمسجد ، والآخر مؤذنا ، فضرب الأفشين كلا منهما ألف سوط حتى عرى ظهراهما من اللحم ، ودعت المحكمة الرجلين وعليهما ثياب رثة فكشفا عن ظهريهما وهما عاريان فقبل للأفشين : أتعرف هذين ؟ قال : نعم . . هذا مؤذن وهذا إمام بنيا مسجدا بأشروسنة فضربت كلا منهما ألف سوط وذلك أن بينى وبين ملك تلك البلاد عهدا وشرطا أن أترك كل قوم على دينهم فوثب هذان على بيت كان فيه أصنام أهل أشروسنة فأخرجوا الأصنام وجعلاه مسجدا ، فضربتهما على هذا .

كفر :

أما التهمة الثانية فهي أنهم عشروا في بيت الأفشين على كتاب قد زين بالذهب والجوهر والديباج فيه كفر بالله . ورد الأفشين على هذه التهمة بالإقرار بها ، وقال إنه ورث الكتاب عن آبائه ، والكتاب فيه من آداب العجم ، وفيه كفر ، فكنت آخذ الآداب وأترك الكفر ، ووجدته محلى بالذهب ولم أكن في حاجة إلى المال حتى أجرد الكتاب من حليته ، وما ظننت أن هذا يخرج عن الإسلام ، وليس شأن الكتاب بعد ذلك إلا شأن كتاب كيلة ودمنة وكتاب مزدك ، وهما في منازل القضاة ، لم يعترض عليهما معترض .

وتقدم (الموبد) أى الكاهن أو القاضى وقال : إن هذا يأكل لحم المخنوفة ويحملنى على أكلها ويزعم أنها أرطب من لحم المذبوحة ، وقال لى يوما : قد دخلت لهؤلاء القوم في كل شيء أكرهه حتى أكلت الزيت وركبت الجمل والبغل ، غير أنى إلى هذه الغاية لم تسقط عنى شعرة (يعنى لم آخذ شعر العانة ولم أختن) فقال الأفشين للقضاة : أخبرونى عن هذا . . هل هو ثقة في دينه ! وكان مجوسيا وإنما أسلم حديثا . . فقالوا : لا . . فقال : فما معنى قبول شهادته ؟ ثم قال للشاهد : ألسنت كنت أدخلك بيتى وأطلعك على سرى ؟ قال : بلى . . قال : لست بالثقة في دينك ولا بالكريم في عهدك إذ أفشيت سرا أسرته إليك . .

ثم تقدم الشاهد الثالث فقال إن أهل مملكته يكتبون له بلغة أشروسنة ما تفسيره بالعربية « إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان » فقال محمد بن عبد الملك الزيات : المسلمون لا يحتملون ذلك فما أبقيت لفرعون إذ قال « أنا ربكم الأعلى » ١١ ودافع المتهم عن نفسه فقال : إن هؤلاء القوم كانوا يكتبون لأبى وجدى ولى بذلك قبل أن أدخل الإسلام ، فكرهت أن أضع نفسى دونهم فتفسد على طاعتهم .

وتقدم الشاهد الرابع فقال إن الأفشين كان يكتب إلى مازيار أنه لن ينصر هذا الدين الأبيض (المجوسية) إلا أنا وأنت وبابك . . فقال الأفشين : هذا يدعى أن أخى كتب إلى أخيه لا يجب على ، ولو كتبت هذا الكتاب إليه لأستميله إلى وثيق بى ، ثم آخذه بقفاه وأحطى به عند الخليفة كما حظى عبد الله بن طاهر ، فزجره ابن أبى دؤاد ، فقال له الأفشين : يا أبا عبد الله أنت ترفع طيلسانك ، فلا تضعه حتى تقتل جماعة . . وكان الأفشين يشير بذلك إلى نزعة العنف عند أبى دؤاد وموقفه المعروف فى حضن الخليفة على إيذاء الإمام أحمد بن حنبل وجماعة الفقهاء الذين رفضوا مسامرة المعتزلة فى مقولة (خلق القرآن) .

وفاجأ ابن أبى دؤاد المتهم بسؤال : أمطهر أنت ؟
قال : لا . .

قال القاضى : فما منعك من ذلك وبه تمام الإسلام والطهور من النجاسة ؟
قال الأفشين : أوليس فى الإسلام استعمال التقية ؟
قال القاضى : بلى . .

قال : خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدى فأموت . .
قال القاضى : أنت تطعن بالرمح وتضرب بالسيف . فلا يمنعك ذلك أن يكون ذلك فى الحرب . . وتنجزع من قطع قلقة !!

قال : تلك ضرورة تصينى فأصبر عليها ، وهذا شئ استجلبه وحسم ابن ابى دؤاد الأمر وقال لزملائه : قد بان لكم أمره . . وقال للقائد التركى (بغا) الكبير : عليك به . . فضرب بغا بيده على منطقتة فجذبها ، وأخذ بمجامع القباء عند عنقه ، وردّه إلى محبسه .

النهاية :

وشعر الأفشين أن نهايته قد اقتربت ، وربما ساوره الأمل فى عفو المعتصم

فبعث إليه برسول هو حمدون بن إسماعيل ، فأخذ يعتذر عما قيل فيه وقال :
قل لأئير المؤمنين إنما مثلي ومثلك كرجل ربى عجلاً حتى أسمىه وكبر ، وكان
له أصحاب يشتهون أن يأكلوا من لحمه ، فعرضوا بذبحه ، فلم يجيبهم ،
فاتفقوا جميعاً على أن قالوا : لم تربى هذا الأسد فإنه إذا كبر رجع إلى جنسه ؟
فقال لهم : إنما هو عجل فقالوا : هذا أسد فسل من شئت (عنه) وتقدموا إلى
جميع من يعرفونه وقالوا لهم : إن سألكم عن العجل فقولوا له : إنه أسد وكلما
سأل إنساناً قال : هو سبع فأمر بالعجل فذبح وإني أنا ذلك العجل كيف
أقدر أن أكون أسداً الله الله فى أمرى ، قال حمدون : فقامت عنه بين يديه طبق
فيه فاكهة قد أرسل به المعتصم مع ابنه الواثق وهو على حاله فلم ألبث إلا قليلاً
حتى قيل : إنه يموت أو قد مات فحمل إلى دار إيتاخ فمات بها وأخرجوه
وصلبوه على باب العامة ليراه الناس ثم ألقى وأحرق بالنار وكان موته فى
شعبان ، قال حمدون : وسأله هل هو مطهر أم لا ؟ فقال : إلى مثل هذا
الموضع إنما قال لى هذا والناس مجتمعون ليفضحنى إن قلت : نعم قال :
تكشف والموت كان أحب إلى من أن اتكشف بين أيدي الناس ولكن إن شئت
أتكشف بين يديك حتى ترانى فقلت له : أنت صادق ، فلما انصرف حمدون
وبلغ المعتصم رسالته أمر بقطع الطعام والشراب عنه إلا القليل حتى مات ،
قال : ولما أخذ ماله رأى فى داره بيتاً (فيه) تمثال إنسان من خشب عليه حلية
كثيرة وجوهر وفى أذنيه حجران مشتبكان عليهما ذهب فأخذ بعض من كان مع
سليمان أحد الحجرين وظنه جوهرًا - وكان ذلك - ليلاً فلما أصبح نزع عنه
الذهب ووجده شيئاً شبيهاً بالصدف (الذى) يسمى الحبرون ووجدوا أصناماً
وغير ذلك والأطواف الخشب التى كان أعدها ووجدوا له كتاباً من كتب
المجوس وكتباً غير فيها ديانته .

ويقال إن الأفشين رد إلى الحبس ومنع عنه الطعام والشراب إلى أن مات ثم
صلب وأحرق بالنار. وكان آخر كلمة قالها قبل موته : كنت أتوقع منكم ذلك .

وبعد صلبه وحرقه عاد الشاعر أبو تمام إلى ذمه بعد أن كان قد مدحه وهو
في أوج المجد ، وقال في قصيدة طويلة :

قد كان بؤاه الخليفةُ جانباً من قلبه حرماً على الأقدار
فلإذا ابنُ كافرةٍ يُسرُّ بكفره وجداً كوجد فرزدقٍ بنوار
ومنها :

ما زال سرُّ الكفر بين ضلوعه حتى اضطلّى مير الزناد الوارى
ناراً يساورُ جسمه من حرّها هُبْ كما عَصَفَرَتْ شقّ إزار
طارت لها شعلٌ يهْدُمُ لفحّها أركانه هَدماً بغير غُبار
فصَلَنَ منه كلُّ تَجَمُّعٍ مَفْصَل وفعلن فاقرةً بكل فقار
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ما كان يرفعُ ضوؤها للشارى
صلّى لها حيا وكان وقودها ميتاً ويدخلها من الفجار
يا مشهداً صَدَرَتْ بفرحته إلى أمصارها القصوى بنو الأمصار
رَمَقُوا أعالي جذعه فكأنها وجَدُوا الهلالَ عشيّةَ الإفطار

محنة رشيد الدين مؤرخ المغول

أعرف أن هذه المأساة سوف تثير شجن القارىء وتملأ قلبه بالحزن والألم ، ولكنى أعرف أيضا أن صفحات التاريخ مليئة بأمثال هذه الفواجع التى راح ضحيتها رجال أفذاذ خدموا أوطانهم بكل شرف ونبل ولم يلقوا سوى الجحود ، وربما انتهت حياتهم على أعواد المشانق أو تحت حد السيف ، والمشكلة أننا لا نقبل على قراءة هذه الصفحات القاتمة لأن كتاب التاريخ لا يحبون لقرائهم أن يتألموا ، فيبحثون عما يدخل البهجة والمسرّة إلى قلوبهم ، فتراهم يتحدثون عن بطولات الأباطرة والملوك والسلاطين ويتابعون انتصاراتهم فى ساحات الوغى ، ولكنهم نادرا ما يتطرقون إلى ما يجرى فى دهايز القصور من جرائم تناقض مبادئ العدل والحق والخير والجمال ، وكتاب التاريخ لا يحبون الحديث عن مجريات القصور ودسائسها وسلوكياتها ربما لأنهم يتصورون أن الحديث عنها يدخل فى نطاق التلصص والتجسس والإطلاع على عيوب الناس ، وهى أمور ينهى عنها الدين ، وربما لأنهم يعتبرون تصرفات الحكام من المقدسات التى لا يجوز كشفها للعامة حتى تبقى صور الحكام كما يتخيلها العامة محاطة بهالات المجد .

لكل هذه الأسباب ، مجتمعة أو منفردة ، رأيت أن أقص عليك مأساة هذا المؤرخ العظيم ، والعالم الموسوعى والباحث المدقق الذى قضى كل حياته فى خدمة العلم ورعاية العلماء فى البلاط المغولى الإسلامى ، حتى إذا أوشكت شمس حياته على الغروب ، وعندما تهباً للنهاية الطبيعية التى تنتظر كل حى ،

إذا بالفتنة تستيقظ من رقادها، وإذا بقرون الشر تظل من مكمنها، وبدلاً من أن يتركوا الرجل يمضى في شيخوخته إلى مثواه الأخير في يسر وهوادة، أخذوه من الدار إلى النار بعد أن حاكوا له مؤامرة خسيصة، وبعد أن عقدوا له محاكمة صورية عن جريمة لم يرتكبها، ولم يرحموا شيخوخته وساقوه إلى ساحة الإعدام، وضربوه بالسيف في وسطه فشطروا جسمه إلى شطرين على عادة المغول في الإعدام.

هذا هو رشيد الدين فضل الله، الوزير الذى جلس على قمة دولة المغول الإسلامية التى أقاموها فى إيران بعد أن دخلوا فى الإسلام فأدار شئون المملكة بكفاءة أثارت حقد حساده فكادوا له، وكان الرجل على عادة عظماء ذلك الزمان موسوعى الثقافة، وإليه يرجع الفضل فى كتابة تاريخ المغول فى مؤلفه الشهير (جامع التواريخ) الذى جمع مادته من الوثائق الرسمية التى عثر عليها فى قصور أباطرة المغول، وترك للعالم هذا التراث العلمى الكبير الذى لم يترك جانباً من جوانب الدين إلا طرقه. . فقد وضع تفسيراً للقرآن الكريم وعديداً من كتب الفلسفة والطب والفقه. . وكان من الممكن أن تظل حياة رشيد الدين طى الخفاء لولا أن توفر عليها المستشرق الفرنسى العظيم (كاترمير) فى القرن الماضى فأزاح عنها الغبار وكشف عنها الغطاء، وقدمها إلى العالم من خلال المقدمة الرائعة التى كتبها لكتاب جامع التواريخ. . وبلغت ١٨٠ صفحة وترجمها أستاذنا الراحل الدكتور محمد القصاص. . وإليك القصة من بدايتها.

شباب :

ولد رشيد الدين فضل الله فى مدينة همدان الإيرانية، ولكنه قضى صدر شبابه وبقية حياته فى مدينة تبريز عاصمة الدولة المغولية «الايلاخانية» التى أقاموها فى إيران. وكان جده «على» موفق الدولة أحد علماء ثلاثة عشر عليهم

هولاكو في حملته الشهيرة على قلعة « الموت » حصن طائفة الإسماعيلية « الحشاشين » . وعرف هولاكو فضلهم العلمى ، فرفض قتلهم مع من قتلهم من سكان القلعة ، وألحقهم بخدمته ، ومن يومها ارتبطت أسرة رشيد الدين بالباطل المغولى ، وشب في معية أبيه داخل قصور المغول المسلمين ، ومنذ طفولته أظهر رشيد الدين تمسكا شديدا بالدين ، وعكف على التفكير في قواعد الدين الإسلامى ، وتطبيق قوانينه في حياته العملية ، وكان شديد التطلع إلى كشف غوامض القرآن والنفاذ إلى مآكنه آياته من الأسرار والمعانى العميقة ، فراح يتردد على مجامع العلماء وينصت إلى تعاليمهم بشغف منقطع النظير ، ويضيف ما يغترفه من أنوارهم إلى ما يصل إليه بتأملاته الشخصية ، وفى ذلك يقول : « على هذا النحو كنت أستغل أوقات فراغى ، وذلك لأنى ألحقت بقصر السلاطين منذ شبابى الغض وشغلت بدقائق الإدارة ، وما فتئت الأعمال والرحلات تجرفنى في غمرتها ، فلم يتوفر لى من الوقت ما يسمح لى بقراءة الكتب التى كان من شأنها أن تزودنى بتعليم متين ، وتمدنى بمعارف شتى في مختلف العلوم والآداب ، وهكذا كان على أن أفنع بالبقاء غارقا في جهلى الأول » .

ويلق كاترمير على هذا الاعتراف بالجهل بقوله : « ينبغي ألا نفهم هذا اللوم الذى يوجهه مؤرخنا إلى نفسه فهما حرفيا ، لأننا سنرى فيما بعد أنه لم يكن جاھلا بأية حال ، بل وسنلاحظ أنه كان يتحلى بالكثير من المعارف العميقة المتنوعة على السواء ، ولعل هذا الحكم القاسى الذى يصدره على نفسه ليس في حقيقة الأمر إلا طريقة مستورة للإعلاء من قدر نفسه .

بدأ رشيد الدين حياته العملية طبيا في قصور السلاطين المغول ، حتى إذا جلس السلطان غازان محمود على العرش سنة ٦٩٤ هـ — ١٢٩٥ م انتبه إلى كفاءة رشيد الدين ، فقربه إليه وجعله موضع ثقته ، وكان غازان محمود يقدر

ذوى الكفاءات ، ويجمع إلى الصفات العالية التى تميز العاهل كثيرا من المعارف الواسعة فى العلوم والآداب ويجذب إلى بلاطه أهل الثقافة فلم يلبث أن أصبح رشيد الدين من خاصته ، وكثيرا ما كان يتناقش معه فى أمور الدين وتفسير القرآن الكريم ، وماهى إلا عشيه وضحاها حتى كان رشيد الدين يشغل أرفع مناصب الدولة ، ورفع السلطان إلى منصب الوزير الأول فى الإمبراطورية بعد منافسة حامية بينه وبين بعض الطامعين فى هذا المنصب الرفيع ، وانتهت المنافسة باندحار خصومه .

وفى سنة ٦٩٩ هـ سار رشيد الدين بصحبة السلطان غازان محمود فى حملته على الشام ، وهى الحملة التى أثارت مشاعر أهالى دمشق والإمام ابن تيمية بسبب الفظائع التى ارتكبها الجنود المغول واعتدائهم على الحرمات مما دفع الإمام ابن تيمية إلى طلب المثل أمام السلطان ليشكو إليه من مسلك جنوده ، وكان السلطان فى ذلك معتل الصحة فأناوب عنه وزيره رشيد الدين لمقابلة الإمام ، والاستماع إليه ، وظل رشيد الدين موضع ثقة سلطانه غازان محمود يرافقه فى حروبه ويترجم أوامره إلى العربية ، فلما مات غازان جلس على العرش أخوه « الجايغو » فبقى رشيد الدين فى منصب الوزارة ، وشاركه فيه وزير آخر اسمه سعد الدين ، واحتفظ رشيد الدين لدى السلطان الجديد بنفس المكانة التى كانت له لدى سلفه حتى إن « الجايغو » جعله وكيلا عن الأميرة كتلكشاذ فى عقد زواجه بها . ولما أنشأ السلطان الجديد ضاحية جديدة أسماها « السلطانية » أقام فيها رشيد الدين ضاحية تضم حوالى ألف بيت ، وكان من بين عمارتها مسجد فخم تحليه منارتان عظيمتان وينتهى بمقصورة تشرف عليه ، وكان فيها أيضا مدرسة ومستشفى وزاوية ، وقد خصصت مبالغ ضخمة لدفع رواتب المدرسين والتلاميذ والأطباء . . وهذا يدل على عظم هذا الوزير المثقف وجوده وكرمه وشغفه بإقامة المؤسسات العلمية والإنفاق عليها من ماله الخاص . كان الأمراء المغول يتنافسون فى الإغداق على وزيرهم

العالم حتى تكونت لديه ثروة عظيمة جاد هو بها على خدمة العلم والثقافة حتى انطبق عليه وصف الشاعر :

يجود علينا الخيرون بهالمهم ونحسن ببال الخيرين نجود
ويحكى أحد المؤرخين المعاصرين أن رشيد الدين عندما فرغ من تأليف احد كتبه قدمه إلى السلطان الجايتو بخطبة أشار فيها إلى ماكان بين الإسكندر الأكبر والفيلسوف أرسطو حين قدم إليه أحد كتبه فمنحه الإسكندر مليون قطعة من الذهب وإن إمبرا في عظمتك ليرى أنه لا يليق بمقامه ألا يضارع الإسكندر في كرمه ، وقبل السلطان التحدى فمنح وزيره ضياعا تبلغ قيمتها ثلاثة أمثال المبلغ المشار إليه ، وإذا كان رشيد الدين قد كرس مبالغ طائلة للعمائر الدينية والخيرية ، فإنه لم يقصر في الإنفاق على الأعمال ذات المنفعة العامة أيضا ما دامت تضمن له مجدا خالدا ، حتى إنه أنفق ستين ألف دينار على نسخ كتبه وتجليدها وتزويدها بالصور والخرائط ، ومع هذا الإنفاق في وجوه الخير فإن مؤرخنا لم يحاول قط أن يسيء استغلال المكانة التي كان يتمتع بها لدى ملوكه ، بل دأب طوال الوقت الذي قضاه في البلاط المغولي على حماية ذوى الفضل ، ومنع الظلم ، والدفاع عن الضعفاء والمضطهدين . لذلك - يقول كاترمير - نرى الكتاب الشرقيين يكيلون لرشيد الدين أطيب الثناء ، ويجمعون على أنه كان وزيرا كفئا يجمع بين معارف أرسطو وحكمة أفلاطون ، وقد أضيفوا عليه كل صفات التفخيم التي لا بد أن يكون مبعثها الرغبة في إنصاف أسمى كفاءة عرفوها ، حتى المؤرخين الذين عاشوا بعد رشيد الدين بقرنين من الزمان أغدقوا عليه ضروب الثناء ، مما يدل على صدق الفكرة التي كونها المعاصرون عن مواهبه وكفاءته ، وإن ذكرى صفاته المجيدة استمرت تنتقل من جيل إلى جيل بالرغم من كل الجهود التي بذلها حساده لتبغيضه وتشويه سمعته .

وعلى ذلك فإن رشيد الدين لم يكن يتمتع بسعادة صافية بالرغم من بلوغه قمة المجد والجاه والثروة ، ولم تسلم حياته من نقمة الحاسدين الذين عملوا في الخفاء على الإيقاع به ، والإساءة إليه ، وعبثوا لهذا الغرض قوى الكذب والنميمة للإطاحة به ، حتى تمكنوا في النهاية من الوصول إلى هدفهم الخسيس . وتعرض رشيد الدين لسلسلة من المؤمرات والدسائس ، ولكنه كان يخرج منها سالماً بفضل أمانته وسلامة تصرفاته ، ووضوح ولائه للملك ، حتى كانت المؤامرة الأخيرة التي أودت بحياته بعد أن ترك الوزارة وعكف على التعبّد في انتظار ملك الموت ، ولكن أعداءه أبوا أن يتركوه يقضى بقية أيامه في هدوء ودفعهم الحقد الدفين إلى الانتقام منه دون مراعاة لشيخوخته .

شريك :

وكان لرشيد الدين شريك في الوزارة اسمه « على شاه » حسب النظام المغولي الذي يقضى بتوزيع السلطات التنفيذية على شخصين حتى يكون كل منهما رقيباً على الآخر فيستحيل التواطؤ بينهما ، ولكن كان من شأن هذا التقسيم أن يؤدي إلى تنازع الاختصاص بين الشريكين وإلى محاولة كل منهما أن يغض من قدر صاحبه وأن يضع أمامه العراقيل ويحمّله مسؤولية الإخفاق ، وبالاختصار أن يسعى بكل جهده إلى التخلص من منافسه حتى تخلص له وحده السلطة ورعاية السلطان .

وثارَت بين الوزيرين مشاكل لا تنتهي حول الإيرادات المالية ، فكلما طلب السلطان مالا اعتذر كل منهما وألقى بالمسؤولية على زميله ، وكان تنازع السلطات بين الرجلين سبباً من أسباب الخلل الذي أصاب إدارة الدولة ، وأتاح الفرصة للوقيعة بينهما والدس لهما عند السلطان . وكان كل منهما يحاول أن يبريء ساحته عن طريق الزلّقى للأمرء المغول الذين كانوا يشغلون المناصب

العليا في الجيش ، فانحاز رشيد الدين إلى «جويان» أمير الأمراء أى قائد عام الجيش ، وأصبح يلجأ إليه كى يعمل على إفساد الدسائس التى تحاك ضده عند السلطان .

وفي هذه الأثناء مات السلطان «الجايغو» وجلس ابنه «أبو سعيد» على العرش . وحين علم رشيد الدين بقدوم السلطان الشاب إلى عاصمة الإمبراطورية أسرع لاستقباله ، وفي نفس الوقت اتخذ جميع الاحتياطات التى رآها ضرورية لحماية نفسه من دسائس أعدائه ، ولاحتفاظه بالمركز الرفيع الذى قدم له جزاء خدماته ، وكان أول مرسوم أصدره العهد الجديد الاحتفاظ برشيد الدين وعلى شاه فى منصب الوزارة ، وتعيين ابنه جلال الدين - وكان ساقيا للسلطان الراحل - فى منصب كبير فى آسيا الصغرى .

وسار الخلاف بين الوزيرين على نفس الأسلوب الذى كان سائدا فى العهد السابق ، واشتدت الخصومة بينهما واخذ على شاه يترصد بشريكه ويتنظر الفرصة للإطاحة به ، واحتاط رشيد الدين للأمر فوثق صلاته بالأمير (جويان) ومازال يضاعف له مودته وهداياه حتى كسب جانبه نهائيا ، ولما علم على شاه بأمر هذه الرابطة ارتاع لها ارتياعا شديدا وأدرك ما يمكن أن يحيق به من جرائها ، لأن الأمير (جويان) كان تام السيطرة على نفس السلطان أبو سعيد ، أو بالأحرى كان هو الذى يحكم الإمبراطورية بسلطات مطلقة ، فاشتغل على شاه ليلا ونهارا فى سبيل البحث عن تهمة يوجهها إلى رشيد الدين لكى تودى به حتى استطاع أخيرا أن يستميل معظم رجال الديوان السلطاني ، فتكتلوا ضد رشيد الدين للإيقاع به عند السلطان حتى بلغوا مرادهم وأصدر السلطان أبو سعيد مرسوما بخلع رشيد الدين فى شهر رجب عام ٧١٧ هـ ، بعد ربع قرن قضاه فى خدمة الدولة ، وغادر رشيد الدين عاصمة الدولة (السلطانية) وذهب إلى تبريز ليرعى المؤسسات العلمية والخيرية التى أقامها هناك ، وكان

المفروض أن يبقى في عزلته بعيدا عن مشاكل الحكم ومتابعيه ، ولكنه تعرض للضغوط من جانب صديقه الأمير (جويان) كى يعود إلى العاصمة ويستعيد ثقة السلطان ، وبعث إليه جويان برسالة يقول له فيها : «إن غيابك قد أضر بمصالح المملكة ضررا بليغا ، ولابد من حضورك لإعادتها إلى سيرتها الطبيعية . فعجل بالمجيء إلى القصر لتسلم المنصب الذى فقدته » . واعتذر رشيد الدين وأجابه بهذه العبارات : « لقد قضيت حياتى شريفا ، ولم يأت لأحد غيرى أن يقوم بمهام الوزارة بنفس النجاح والشرف اللذين توفرا لى ، واليوم أصبح لى عدة أبناء يشغلون مناصب هامة ، فأريد إذن ، أن أقضى الأيام القليلة التى بقيت لى فى الحياة فى خلوتى ، وأن أنفقها فى التكفير عن أخطائى » .

إلحاح :

ولم يقتنع جويان بهذه الأعذار ، ولم يترك الرجل فى عزلته فألح عليه إلحاحا شديدا أن يظهر فى القصر ، واستجاب الرجل لهذا الرجاء المتواصل ، وحضر إلى جويان الذى استقبله بابتهاج عظيم ، وقال له : « سأذهب إلى السلطان وأخبره أنى علمت بالتجربة أنه لا يوجد من يماثلك فى حكم الإمبراطورية بجدارة وحزم ، وإن الإدارة قد شلت حركتها بعد رحيلك ، وفقدت رونقها » ثم أضاف قوله : « انتظرنى حتى أعود إليك بالإجازة التى ترجعك إلى مرتبة الوزارة » .

ولعل القارئ يقول - كما يقول كاترمير - إنه كان يجدر برشيد الدين أن يصبر بشجاعة على رفض هذه المغريات ، وكان عليه أن يتذكر أن هذا الرجل - جويان - الذى يتوسل إليه الآن فى أن يتسلم زمام الحكم ، هو نفسه الذى أسلمه بكل جبن لانتقام أعدائه بعد أن تظاهر له بالصدقة الحميمة ، ولكن رشيد الدين كان فى هذه الظروف يستحق الرثاء أكثر مما يستحق اللوم ، فانتقاد

أمام إغراء الإلحاح عليه من أمير يمثل المركز الأول في الدولة ولا ينقصه غير اسم السلطان ، وتأثر للفوضى التي حلت بالإدارة ، وتمنى أن يقدم علاجاً ناجحاً للداء الذي سببه جهل خلفائه واختلاساتهم ، ولعله اندفع أيضاً ببقية طموح لا يستطيع أحكم الرجال أن يقضى عليه في نفسه قضاء مبرماً ، فقبل أسفاً . وكان هذا القبول سبب ما حل به من كوارث .

والذي حدث أن خصوم رشيد الدين ما إن علموا بنبا ظهوره في القصر حتى عمهم الحزن والذعر ، وتفتق ذهنهم عن مؤامرة خسيسة قضت عليه ، واحتاطوا للأمر فاستمالوا رجلاً اسمه (ابو بكر أقا) كان موضع ثقة الأمير (جوبان) فتعهد لهم بحرمان رشيد الدين من حماية الأمير ، أما تفاصيل المؤامرة فكانت كما يلي :

ذهبوا إلى السلطان وأخبروه ، أنه لما كان أبوه السلطان الجايتو في مرضه الأخير نصحه رشيد الدين - عمداً - باحتساء شراب معين سبب موته ، وإن إبراهيم بن رشيد الدين - وكان ساقى السلطان - هو الذي قدم له الشراب بالاتفاق مع أبيه ، وتولى أحد خدام الملك واسمه (زنبورى) إبلاغ السلطان بالنبا الأليم فارتاع لذلك . وأمر على الفور باستدعاء رشيد الدين إلى القصر ومحاكمته ، وجاء شهود الزور فأدلو بأقوالهم ، وعندئذ أمر السلطان بإعدام رشيد الدين وابنه جلال الدين .

ويروى مؤرخ معاصر اسمه الصفاعى تفاصيل المأساة فيقول : جرى برشيد الدين إلى السلطانية على خيل البريد ، ولما مثل أمام الأمير جوبان - الذي أغراه بالعودة - وجه إليه تهمة دس السم للسلطان ، فأجاب بقوله : « كيف يتأتى أن أرتكب مثل هذا الجرم ، وأنا أدين لهذا السلطان وأخيه برفعتى ؟ ففى عهديها أسندت إلى إدارة المملكة وماليتها ولم يكن بيت في شأن من الشئون إلا

بأمرى ، وبفضل منح هذين السلطانين أصبحت أمتلك العقار والنقود والجواهر والثروات التى لا تحصى ! » .

واستدعى ابن حمران الطبيب الذى كان بجوار الجائتو عند مرضه فقال : أصيب السلطان بعسر هضم شديد مصحوب بإسهال غريب وقىء متلاحق ، ولما دُعيت إليه قررت بالاتفاق مع الأطباء الآخرين إعطاء السلطان دواء قابضا وكان رشيد الدين وحده على عكس هذا رأى ، إذ ادعى أن هذا التعب ناشئ عن تخمة ، وإنه لابد من مواصلة التفرغ ، فأعطينا السلطان دواء ملينا زاد الإسهال وأدى بالمريض إلى القبر .

النهاية :

واعترف رشيد الدين بهذه الحقيقة ولم ينكرها على أساس رؤيته كطبيب لحالة المريض ، ولكن جوبان أدانته بالتسبب فى موت السلطان وحكم عليه بالموت ، واقتيد هو وابنه إبراهيم إلى ساحة الإعدام ، وبدئ بإعدام ابنه الذى لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، وكان يجمع بين جمال الخلقة وطهارة النفس ونبل الخلق ، وشاهد رشيد الدين جسد ابنه وقد انفصل إلى نصفين بعد أن ضرب بالسيف فى وسطه ، وبينما كان يتقدم ليلقى مصيره الأخير طلب من أحد الشهود أن يقول لغريمه على شاه : « هاأنذا أموت بريئا ضحية لاتهاماتك الكاذبة وسيأتى يوم تطالبك فيه العدالة الإلهية بحساب إعدامى » .

ولم ينته من هذه الكلمات حتى كان (حاجى النفى !!) أحد المشتركين فى المؤامرة قد ضربه بالسيف فشطّر جسمه شطرين ، ثم اجتزوا رأس رشيد الدين إلى تبريز وطاف بها الغوغاء فى الشوارع وهم يصيحون : « هذا رأس اليهودى الملعون الذى حرق كلام الله » ويقال إن جسمه قطع إربا وأرسلت أشلاؤه إلى مختلف مدن الإمبراطورية ، وانطلقت الشرطة تنهب دوره ودور

ابنائه وأقاربه وتدمر الحى الرشيدى المسمى باسمه فى تبريز ، وصادروا منقولاته وعقاراته وحتى الأموال التى أوقفها على الأعمال الخيرية لم تسلم من المصادرة .

وهكذا لقى رشيد الدين - المؤرخ العالم الفيلسوف - حتفه وهو فى الثالثة والسبعين من عمره بعد خدمات جليلة طويلة كان يبدو أنها تؤهله لجزاء غير هذا الجزاء . . ولا أجد ما أحتتم به مأساة رشيد الدين أبلغ من هذه العبارة التى أوردها المستشرق كاترمير الذى كان له فضل تعريف العالم بتراث رشيد الدين العلمى والأدبى والتاريخى ، فيقول : « من الأمور الغالبة فى تصور الشرق أن يكون الموت العنيف جزاء مشتركاً لكل من الجريمة والفضيلة . إذ يقدم لنا تاريخ هذه الأقطار أمثلة شنيعة لا تنسى فى كل صفحة من صفحاته ، وفى كل مكان نرى الفضيلة تتلوى بين مخالب الغدر والدسيسة ، حتى تهوى تحت وطأة هذا الصراع غير المتعادل ، وإذا كان الباغى يجنى فى النهاية العقاب الذى تستحقه أوزاره ، فإنه فى معظم الأحيان لا يهلك لأنه باغ . . بل لأن تركته قد أسالت لعاب طاغية آخر . . » .

نكبة البرامكة

فى ليلة السبت غرة المحرم من عام ١٨٧ هجرية الموافق ٩ يناير عام ٨٠٧ ميلادية عاد الخليفة هارون الرشيد من رحلة الحج . فتوافد عليه الأمراء والكبراء والشعراء مهئينين بسلام العودة . . فلما فرغوا من تقديم مراسم التبريك انصرفوا ولم يبق فى حضرة الرشيد سوى وزيره المقرب ، وصديقه الحميم ، وخله الوفى جعفر بن يحيى البرمكى ، وجلس الخليفة ووزيره يتسامران ويروى كل منهما للآخر ما عاناه طوال أيام الفراق . وكانت أيام الحج هى أطول فترة باعدت بين الصديقين اللذين لم يفترقا إلا بقدر ساعات النوم ، حتى إن الرشيد أمر صانع ملابسه بأن يصنع له ثوبا فضفاضاً يتسع لهما معا . .

بلغ جعفر من قلب الرشيد منزلة لم يبلغها أحد من أولاده أو أخوته ، وبلغ من علو القدر ونفاذ الأمر وجلال المنزلة عند الرشيد ما جعله محلاً لنقمة الحاسدين وغيره العلية النافذين وقد رأوا بأعينهم كيف أصبح جعفر صاحب الأمر والنهى فى شئون الإمبراطورية العباسية ، وكيف أن الرشيد كان يسميه (أخى) وعهد إليه بإدارة شئون الأقاليم الغربية من الأنبار إلى أفريقية (تونس) وعلموا أن الخليفة كان يفضل جعفرًا على أخيه الفضل ذلك الوزير الحازم المتجهّم الوقور الذى لا يعرف للمزاح محلاً . . ولا تلمس شفتاه خمرًا حتى إنه كان يقول « لو علمت أن الماء ينقص من مروءتى لما شربته » . ولم تكن هذه الصفات توافق مزاج الرشيد الذى كان يميل إلى المرح ، ويحب الشراب ، ويأنس إلى المنادمة . . وكان يجد مبتغاه فى شخصية جعفر ، وأراد أن ينقل

خاتم الدولة من الفضل إلى أخيه ، وتخرج الرشيد من أن يسمى الفضل فهم دوافع الخليفة فلجأ إلى الأب فبعث إلى ابنه الفضل : إن أمير المؤمنين رأى أن ينقل خاتم الخلافة من يمينك إلى شمالك . . وتقبل الفضل الأمر راضيا . . ونقل الخاتم إلى عنق أخيه دون غضاظة أو حسد . فقد كان سعيدا بتلك العاطفة الجياشة بين أخيه والخليفة ، على عكس أبيهما يحيى بن خالد الذي كان يدرك بحصافته وخبرته مخاطر هذه العلاقة على ولده جعفر وعلى أسرة البرامكة كلها .

كان يحيى رجلا عاقلا يعرف ظروف عصره ، ويعرف المناخ السياسى الذى يعيش فيه جيدا . . وهو مناخ مشبع بالمؤمرات والدسائس التى يتقنها طلاب المناصب ، وأصحاب الطموحات الكبيرة الذين يغضبهم ماوصلت إليه أسرة البرامكة من مجد ونفوذ ، وكان يخشى من إسراف الرشيد فى حب ابنه جعفر . ولا يأمن أن ينقلب هذا الحب إلى نقيضه عندما تدور الأيام دورتها وتتحول الريح إلى عكس اتجاهها ، وكم حاول الأب الحصيف أن ينصح ابنه بالتعقل والاتزان فى علاقته بالخليفة ، ولكن الابن العاطفى لم يسمع لنصح أبيه . عندئذ اتجه يحيى إلى الخليفة نفسه لعله يخفف من عاطفته الحارة نحو جعفر . وقال له ذات يوم : يا أمير المؤمنين . . أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ، ولست آمن أن ترجع العاقبة فى ذلك على منك ، فلو أعفيتة واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك . . كان ذلك واقعا بموافقتى . . وأمن لك على . . فقال له الرشيد : يا أبت ليس بك هذا . . ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل . .

كان يحيى يتكلم بلسان العقل والحكمة . . ويريد أن تظل العلاقة بين الخليفة وجعفر فى إطار العمل والمسئولية ، لأنه كان يدرك بحاسته الموهبة ما تنطوى عليه نفس الرشيد من عاطفة مشبوهة . . وهو منزلق لا تحمد عقباه . . فالعواطف تتقلب وتتحول . . ولكن الرشيد لم يأبه لهذا المطلب ، وفسره تفسيراً عاطفياً بحثاً ظنا منه أن الأب إنما ينحاز إلى ابنه الفضل . ويريد له مكانا أثيراً فى قلب الرشيد .

أوشك الليل أن يتتصف ولم يزل جعفر في حضرة الرشيد يسامره ويحكى له أهم ما جرى أثناء غيابه في رحلة الحج . حتى إذا أفرغ ما في جعبته من أخبار طلب من الرشيد أن يأذن له بالرحيل في الغد إلى خراسان ، ولكن الرشيد استمهله وطلب منه ألا يتعجل في السفر حتى يمكثا بضعة أيام تعوض أيام الفراق ، واستجاب الوزير لرغبة مولاة . . واستأذن في الانصراف إلى بيته على أن يوافيه في الصباح . . وهم جعفر بالانصراف إلى بيته ، ونهض الرشيد يودع صديقه وحبيه حتى باب القصر ويشدد عليه في الحضور مبكراً . . وغادر جعفر القصر ، وعاد الرشيد إلى قاعة العرش . بعد أن خلت من الحجاب ، ووجد الخليفة نفسه وحيداً لا يسمع إلا أنفاسه وهي تترجرج في صدره . . وعيناه تنظران إلى لاشيء . . والهواجس تتصارع في خفايا قلبه وكأنها شواظ من لهب محموم .

كان الرشيد يدرك خطورة القرار الذي يلح عليه إلحاحاً . . ولكنه وصل إلى نقطة اللاعودة . . ولم يعد لديه متسع لمراجعة القرار الذي ارتضاه ضميره واستراح إليه عقله ، واستقرت عليه مشيئته . لقد انتهت إلى الأبد فرصة التردد ، وكان عليه أن يمضى في تنفيذ الخطة التي دبرها مهما كان الثمن . . وأياً كانت النتائج . . فالثمن وإن كان فادحاً . فهو أيسر من الخطر الذي يهدد دولة هو مسئول عنها أولاً وأخيراً . . وانطلاقاً من هذه المسئولية اتخذ قراره الخطير الذي لم يبح به لأحد .

أفاق الرشيد من غفوته وصفق يديه فدخل عليه خادمه المطيع « مسرور » ذلك السيف الشهير الذي احترف قطع الرقاب بضربة واحدة من يده الفولاذية التي لا تخطيء أبداً . . كان مسرور زنجياً ألفت به رياح النخاسة على ساحل البصرة منذ صباه . . واتخذ طريقه إلى قصر الخليفة المهدي والد الرشيد ، واستطاع أن يخترق الصفوف ويصل إلى حضرة الخليفة لما كان يتمتع

به من قوة عضلية خارقة ، وجسارة نادرة ، ونفس صخرية لاتعرف الرحمة أو الشفقة ، فلا يهتز له جفن وهو يرى الرؤوس تتهايل على أكتاف أصحابها ، ولا يعرف الضعف سيلا إلى قلبه وهو يرى الدماء تتفجر من الرقاب بعد قطعها ، ووجد الخليفة المهدي مبتغاه في مسرور فتعهد إليه بقطع رؤوس الزنادقة الذين أشاعوا الإلحاد والفجور في المجتمع العباسي ، وورث الرشيد السيف «مسرور» ضمن التركة المثقلة التي ورثها عن أبيه المهدي وأخيه الهادي . . وحل مسرور من نفس الرشيد مكانا مفضلا وأصبح يرافقه مثل ظله ، وينفذ أحكامه الفورية في لمح البصر .

دخل مسرور على سيده الخليفة فراعته أن وجده مهموما شاردا . . حتى إن الرشيد لم يفتن إلى وجوده إلا بعد أن قال مسرور ثلاثا : لبيك يا مولاي . . فرفع الرشيد رأسه من بين كفيه وسدد إلى مسرور نظرات تقدح شررا . . وقال له : إنني أعهد إليك بأمر جلل .

قال مسرور وهو يضع يده على قائم سيفه : إنني طوع أمر مولاي .

قال الرشيد : عليك أن تذهب لتوك إلى جعفر بن يحيى البرمكي .

جحظت عينا مسرور وتعلقت بشفتي الرشيد . فإذا به يقول :

-وتأتيني برأسه . .

كاد مسرور أن يصعق هول الكلمات التي صبت في أذنيه وكأنها نحاس مصهور . . ولم يصدق نفسه . . وتوقف برهة عن التنفس . . ولم تتحرك قدماه كأنهما تسمرتا في مكانهما . . ولاحظ الرشيد هول الصدمة على وجه مسرور فقال وهو يضغط على مخارج الألفاظ :

-مالك لا تتحرك . . هل أصبت بالشلل ؟ امض إلى ما أمرتك ولن أبرح مكانى حتى تأتيني برأس جعفر .

عندئذ أدرك مسرور أن ما سمعه لم يكن وهما .. وإنما هى الحقيقة التى لم تخطر على باله .. ولو أطلق اللسانه العنان لقال لسيده : وهل طأوعك قلبك يا مولاي على أن أقطع رأس الرجل الذى أحببته حبا جما .. والذى أخلص لك إخلاصا صار مضرب المثل على السنة الخلق أجمعين .. ولكن مسرورا الذى لم يتعود مراجعة سيده لم يجرؤ على البوح بما يدور فى نفسه .. وإنما الذى تكلم هو الرشيد فقال :

— خذ معك حماد بن سالم أبو عصمة .. ومعكما جماعة من الجند .. وحذار أن يفلت منكم اللعين جعفر .. وإنى فى انتظاركم ..

كان جعفر قد عاد إلى بيته بعد أن فرغ من تحية الرشيد ومسامرته .. وبدأ يستأنف سهرته ومعه جبريل ابن بختيشوع الطيب .. والمغنى الضرير « أبو زكار » ودارت الكؤوس وهم فى نشوة من أمرهم .. كان جعفر يتمايل طربا على صوت « أبوزكار » وهو ينشد قصيدة تنضح كلماتها بالتشاؤم ومطلعها :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى
عليه الموت يطرق أو يغادى

استفاق جعفر من نشوته وهو يرى مسرورا السيف يقتحم عليه غرفته .. ويقف أمامه وجها لوجه دون استئذان .. دهش جعفر لمسلك مسرور .. وتوقع أن يعتذر مسرور ولكنه لم يفعل .. عندئذ سأله :

— ما الذى جاء بك يا مسرور ؟

قال مسرور وهو ينطق الكلمات بصعوبة : جئت منفذا أمر أمير المؤمنين .

قال جعفر : وما الذى أمر به أمير المؤمنين ؟

قال مسرور : أن أعود إليه برأسك ؟

ذهل جعفر لما سمع .. ونهض من مكانه وقال : لعلك تهزل يا مسرورا

قال مسرور : مثلى لا يعرف الهزل يا سيدى .

أدرك جعفر أن الأمر جد لا هزل . . وأن منيته قد حانت . . وإنه لامنجاة
من القتل . . فقام يستعطف مسرورا . . ويرجو أن يتركه يدخل ليكتب
وصيته . . وإنهال على قدميه يقبلها . . ولكن مسرورا قال له : أما الدخول فلا
سبيل إليه . .

قال جعفر : إذن خذنى حيا إلى أمير المؤمنين . . لعل الخمر لعبت برأسه
فاتخذ قراره دون وعى . . وربما ندم على قراره عندما يفيق . . ويحملك مسئولية
التسرع فى تنفيذ أمره . . وما عليك إلا أن تأخذنى إليه حيا حتى تقع عينه
على . . وله بعد ذلك أن يفعل ما يراه . .

ولأول مرة فى تاريخه الملطخ بالدماء تسللت الرحمة إلى قلب مسرور . .
ووافق على أن يصحب معه جعفرا حيا . . لعل الرشيد يرجع عن قراره . .

وقف جعفر وقام مسرور بتقييد قدميه بحبل . . واقتاده فوق بغل يحيط به
الجنند . . وذهب إلى قصر الرشيد . . ودخل على الخليفة فى مخدعه فعاجله
بالسؤال :

- هل جئت برأس جعفر ؟

قال مسرور : لقد جئت به حيا . . يريد أن تقع عينك عليه . . عندئذ ثار
الرشيد وقال له :

- هو يعلم إن وقعت عينى عليه لن أقتله . . اذهب يا ابن اللخناء وأتنى
برأسه . .

كان مسرور قد ترك جعفرا مقيدا فى غرفة جانبية فى انتظار القرار الأخير . .
فدخل على جعفر وأخبره بما قال الخليفة . . فقال :

- يا أبا هاشم . . الله ! الله ! الله ! والله ما أمرك بما أمرك به إلا وهو
سكران ، فدافع بأمرى حتى أصبح أؤمراه فى ثانية .

فعاد مسرور ليراجع الخليفة فما إن رآه حتى قذفه بعمود ثم قال :

- نُفِيت من المهدي (أبيه) إن أنت جئتني ولم تأتني برأسه . . لأرسلن إليك من يأتيني برأسك أولا . . ثم برأسه آخرًا .

عاد مسرور مذعورا إلى حيث يوجد جعفر فضر به ضربة واحدة فصلت رأسه عن جسده . .

أما بقية المأساة فيرويها الطبري فيقول :

وفي تلك الليلة أمر الرشيد بتوجيه الجند فأحاطوا بمنازل يحيى بن خالد وجميع ولده ومواليه ، وكل منهم بسبيل ، فلم يقلت منهم أحد كان حاضرا ، وحول الفضل بن يحيى ليلا فحبس في ناحية من منازل الرشيد وحبس يحيى بن خالد في منزله ، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك ، ومنع أهل العسكر من أن يخرج منهم خارج إلى مدينة السلام (بغداد) أو إلى غيرها ، ووجه من ليلته رجاء الخادم إلى الرقة في قبض أموالهم وما كان لهم ، وأخذ كل ما كان من رقيقهم ومواليهم وحشمهم ، وولاة أمرهم ، وفرق الكتب من ليلته إلى جميع العمال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم ، فلما أصبح بعث بجثة جعفر بن يحيى مع شعبة الخفثاني وهرثمة بن أعين وإبراهيم بن حميد ، وأتبعهم عدة من خدمة وثقاته ، منهم مسرور الخادم ، إلى منزل جعفر بن يحيى ، وكتب إلى السندی الحرشي بتوجيه جيفة جعفر إلى بغداد ، ونصب رأسه على الجسر الأوسط ، وقطع جثته ، وصلب كل قطعة منها على الجسر الأعلى ، والجسر الأسفل .

وكانت تلك بداية المأساة ، التي حاقت بدولة البرامكة ، وهبطت بهم من حالق العز والمجد والسؤدد إلى مدارك الذل ، وهي أشد نكبة في تاريخ الإسلام لما صاحبها من غموض لايزال يحير المؤرخين حتى عصرنا الحاضر .

لغز غامض :

لماذا انقلب الخليفة هارون الرشيد على البرامكة بهذه الطريقة الغادرة ؟ وما الذى جعله يعصف بهم ويصادر أموالهم ويطارد فلولهم ويمحو ذكرهم من صحائف الدولة بعد أن كانوا موضع الحظوة والمجد والسيادة منذ نشأة الدولة العباسية ؟ وما هى الجرائم التى ارتكبوها حتى ينكل بهم الرشيد تنكيلا بالغ القسوة دون أن تأخذه بهم رحمة أو شفقة ، وهو الذى تربى فى أحضانهم ، ورضع لبنهم ، وتغذى من علومهم وثقافتهم ، وهم الذين حافظوا على عرشه من أطباع أخيه الخليفة موسى الهادى عندما أزمع خلعه من ولاية العهد [!!].

الواقع أن نكبة البرامكة من أشد الغاز التاريخ الإسلامى غموضا وإبهاما ، ذلك أن الرشيد فعل فعلته دون أن يذكر مبرراتها وأسبابها ، والبرامكة أنفسهم تحملوا النكبة صابرين صامتين ولم يفتحوا شفاهم ليدافعوا عن أنفسهم ويقولوا شيئا ينير للمؤرخين مسببات هذه النكبة التى لا تضاهيها نكبة أخرى ، نظرا للمكانة السامية التى بلغها البرامكة فى نفوس الناس وفى سجلات العصر العباسى ، لقد أطيح بوزراء وقادة من قبلهم ومن بعدهم ، ولكن نكبة البرامكة فاقت سواها لما اتسمت به من صبغة جماعية أصابت الأسرة كلها ، وكل من يمت إليها بصلة . . الأمر الذى أصاب الناس بصدمة نفسية لا تزال أصداءها تتردد رغم مر القرون والعصور .

لا يزال الناس يتخذون من نكبة البرامكة دليلا على بشاعة حكم التسلط والطغيان . عندما تصبح كلمة الحاكم هى القانون وهى الشريعة وهى القضاء ، وعندما تصبح مصائر الناس مرهونة بإشارة من إصبعه ، فيهوى سيف « مسرور » على الرقاب ليفصلها عن أجسادها دون سؤال أو تحقيق . . ودن أن يجرؤ أحد على أن يسأل الحاكم : لماذا فعلت هذا ؟ ومن المسئول عن هذه الأرواح التى أزهرت وبأى ذنب قتلت [!!] .

لقد أحاط الظلام الدامس بهذا الحادث الجلل ، لأن القاتل والقَتيل دخلا في ذمة التاريخ دون أن يقدم أحدهما تفسيراً لما حدث ، ومعنى ذلك أن الملف لا يزال مفتوحاً ، والقضية لا تزال ساخنة تثير شهية كتاب التاريخ وقراءه على السواء ، فكتاب التاريخ يرون أن مجال البحث عن الأسباب يدعوهم إلى الغوص في أحشاء الواقعة لعلهم يضعون أيديهم على مبررات معقولة ، وقراء التاريخ يتخذون منها العبرة والعظة مما حدث لأجدادهم عندما تخلوا عن مبدأ الشورى ، وتنازلوا عن حقهم في اختيار الحاكم ومحاسبته وعقابه على آثامه ، ولا يمكن أن تكون قراءة هذا الفصل الدامي من تاريخ المسلمين مدعاة للتسلية أو ترجية للفراغ ، ولكنها دعوة إلى التفكير والتدبير حتى نتحرز من الوقوع فيما وقع فيه الأسلاف ، ونرصد الواقع ونستشرف المستقبل على ضوء الماضي ، ونستنبط من الأمس ما سوف يأتي به الغد ، فنضع الضمانات التي نحفظ حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ، ونصوغ القيود التي تكبح شهوة الحكام إلى التسلط والطغيان ؟

درس مؤلم :

نكبة البرامكة درس مؤلم لابد أن يفهمه كل من يحوم حول مراكز الصدارة ، ويسعى إلى ممارسة السلطة ، ولهذا لابد أن أبدا معك مسيرة هذه الأسرة التي أخذت غدرا بعد أن بلغت ذروة الجاه والنفوذ وارتبط تاريخها بتاريخ الدولة العباسية منذ قيامها عام ١٣٢هـ ، أما تاريخ البرامكة مع الإسلام فيعود إلى الفتوحات الإسلامية في عصر الخليفة الراشد عثمان بن عفان ، الذي تم على يديه فتح إقليم خراسان موطن القومية الفارسية ، ومنه امتد الفتح إلى مدينة [بلخ] مسقط رأس البرامكة والتي تقع الآن في بلاد الأفغان ، وكان [برمك] الجدل الأكبر لهذه الأسرة الفارسية الأرستقراطية يقوم على خدمة [النوبهار] وهو

بيت النار المقدس الذى أقامه المجوس على غرار الكعبة المشرفة ويأتيه المجوس من شتى الأصقاع لأداء طقوسهم ، وفى ذلك يقول ياقوت الحموى فى معجم البلدان : كانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ مثل ملوك الطوائف ، وكان دينهم عبادة الأوثان ، فوصفت لهم مكة وحال الكعبة بها ، وما كانت عليه قریش ومن والها من العرب يأتون إليها ويعظمونها ، فاتخذوا بيت النوبهار مضاهاة لبيت الله الحرام ، ونصبوا حوله الأصنام ، وزينوه بالديباج والحريز وعلقوا عليه الجواهر النفيسة .

وقد اختلف المؤرخون حول إسلام [برمك] قال بعضهم إنه رحل إلى المدينة عقب الفتح ، وأشهر إسلامه فى حضرة الخليفة عثمان وسمى نفسه «عبدالله» فلما رجع إلى مسقط رأسه أنكر أهله إسلامه وخلعوه من موقع الزعامة فقال لهم : إني إنما دخلت فى هذا الدين اختيارا ، وعلمنا بفضلته من غير رهبة ولم أكن لأرجع إلى دين بادية العوار ، مهتك الأسرار .

وقال آخرون إن برمك ظل على دين آبائه المجوس ، أما الذى لا يختلف على إسلامه فهو ابنه «خالد» الذى أسلم وحسن إسلامه وصارت إليه زعامة هذه الأسرة العريقة ، وقد ولد خالد عام ٩٠ هـ فى عهد الدولة الأموية ، وقبل أن أمضى معك فى سرد تاريخ خالد بن برمك مع الدولة العباسية ، أرجو أن تضع فى ثنايا ذاكرتك تلك المعلومات التى ذكرناها عن تاريخ الأسرة البرمكية ودينها المجوسى ووظيفتها الدينية فى خدمة بيت النار ، لأن هذه المعلومات القديمة سوف يكون لها دور فى نكبة البرامكة فيما بعد ، وسوف يعزرو بعض المؤرخين أسباب النكبة إلى هذه الرواسب المجوسية السابقة .

مواهب :

ونعود إلى خالد بن برمك وقد جاوز مرحلة الشباب لتعثر عليه عضوا نشطا فى التنظيمات السرية التى أقامها العباسيون فى خراسان تمهيدا للإطاحة بحكم

الأمويين . فلما كشف التنظيم عن وجهه تحت قيادة أبى مسلم الخراسانى وجدنا خالد بن برمك مشاركا فى المعارك الحربية التى دارت بين الفيالق الفارسية وفلول الجيش الأموى .

وفى تلك المعارك ظهرت مواهب خالد وبراعته وفطنته وحسن سياسته . من ذلك مايرويه الجهشيارى فى كتابه [الوزراء والكتاب] نقلا عن « الجاحظ » عندما كان خالد يمضى مع القائد قحطبة بن شبيب فى مطاردة الجيش الأموى ، وبينه وبين الأعداء مسيرة أيام وليال ، ثم حطوا رحالهم لتناول الطعام والراحة ، فنظر خالد فرأى قطعان الظباء قد أقبلت من ناحية الصحراء ، وأخذت تتغلغل بين فصائل الجند ، فقال لقحطبة : أيها الأمير . . أعلن النفير . . وناد فى الناس : « يا خيل الله اركبى » فإن العدو على مقربة من موقعنا . . وعلينا أن نعد الخيل لمواجهةهم قبل أن يدهمونا . . فقام قحطبة مذعورا ، فلم يجد غبارا أو دليلا على قرب العدو . . فقال له خالد : أيها الأمير لا تتشاغل بكلامى وأسرع بإعلان النفير . . أما ترى أقاطيع الوحوش قد أقبلت فارقت مواقعها حتى خالطت الناس ؟ إن وراءها جمعا عظيما . . واستجاب قحطبة لمشورة خالد . وما إن تأهب الجند حتى ظهرت طلائع الأعداء . . فوجدوا أصحاب قحطبة على ظهور خيولهم ، ولولا نظرة خالد بن برمك وفراسته لفوجئوا بالعدو فوق رؤوسهم ، وتفهم من هذا أن خالد بن برمك كان أحد السيوف الفارسية التى قامت عليها دولة العباسيين ، وتفهم أيضا أن الرجل كان مخلصا فى ولائه للعهد الجديد ، فكان على الدولة الجديدة أن تقدر له هذا البلاء الحسن . وإن تفتتح أمامه الطريق ليصل إلى مكان الصدارة حتى إن السفاح أول خلفاء الدولة العباسية دفع ابنته « رَيْطَة » إلى خالد بن برمك حتى أرضعته زوجته أم خالد ، وكذلك فعلت أم سلمة - زوجة السفاح - إذ أرضعت بنتا لخالد أسمها أم يحيى بلبان ابنتها ريطه .

ومعنى ذلك أن العلاقة بين البرامكة والبيت المالک العباسی لم تقتصر على شئون السیاسیة والحکم ، وإنما امتدت إلى أدق الروابط الإنسانیة والعائلیة إلى حد تبادل الرضاع ، ونفس هذا المزج سوف يتكرر عندما یولد هارون الرشید فیرضع لبان البرامكة من ثدى أم الفضل زوجة یحیی بن خالد . بل إن الاختلاط بین أبناء الأسرتین كان عمیقاً إلى درجة أن « أم یحیی » بنت خالد كانت تشارك « ریطة » بنت الخلیفة فی فراشها . وشهد السفاح ذلك فقال لخالد :

لقد استعبدتنی ! فوجم خالد وقال : أنا أمیر المؤمنین . فقال له : كانت ریطة وأم یحیی فی فراش واحد فتكشفتا ، فرددت علیهما اللحاف ! فقبل یده وشكر له .

نکبة الوزارة :

كان أبو سلمة الخلال أول وزیر فی دولة بنی العباس ، بل أول مسئول یحمل لقب وزیر فی تاریخ الإسلام ، وقد تجمعت لديه خیوط الانقلاب العباسی منذ الیوم الأول ، ولكن الرجل لم یکن أمیناً لساداته العباسیین وخطر على باله أن یلعب على الحبلین ویسلم مقالید الحکم الجدید إلى العلویین .

ولم یغفر له العباسیون هذه الخیانة فاغتالوه بعد أسابيع من ت وزیره ، وجاءوا بخالد بن برمک لیحل محله فی مقعد الوزارة ، ومن المؤکد أنه فرح لهذه الثقة ، ولو أحسن الظن لاعتذر حفاظاً على رقبته ورقاب أبنائه ، ففی مثل هذه الأنظمة الاستبدادیة یصعب بقاء الوزیر فی مأمن من الاغتيال ، ولك أن تدesh إذا عرفت أن کل وزراء الدولة العباسیة ماتوا اغتیالا . . ونذر إن مات أحدهم على فراشه .

أصبح خالد بن برمك وزيرا في دولة السفاح ، وبقي في منصبه حتى جاء المنصور فأبقاه ، وأضاف إليه أعباء جديدة مثل ولاية الموصل فأحسن خالد إلى الناس ، وقهر المفسدين ، وقضى عليهم ، وهابه أهل البلد هيبة شديدة مع إحسانه إليهم ، حتى قالوا عنه : ما هبنا قط أميرا هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشتد عقوبته ولا نرى فيه جبرية ولكن هيبة كانت له في صدورنا .

لم يكن من اليسير أن يبقى خالد بن برمك إلى جانب المنصور ، حائزا على ثقته ورضاه إلا إذا سار الوزير على هوى سيده ، متمشيا مع سياسته التي تقوم على الغدر والتحايل والميكيا فيلية في أجلى صورها .

كان المنصور قد جعل ولاية العهد لأحد أمراء البيت العباسي وهو عيسى ابن موسى ، ولكن المنصور خطر على باله أن يخلع ابن عمه من ولاية العهد وينقلها إلى ابنه (المهدي) ولكن كيف السبيل إلى إقناع عيسى بالتنازل عن ولاية العهد بطريقة سلمية ؟ تلك كانت مهمة خالد بن برمك . . فكان عليه أن يستخدم دهاءه لإقناع عيسى بتلبية رغبة الجبار أبو جعفر المنصور .

يروى الطبري هذه الواقعة في أحداث سنة ١٤٧ هـ فيقول : أراد أبو جعفر أن يخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ويقدم عليه المهدي ، فأبى أن يجيبه إلى ذلك ، وأعيى الأمر أبو جعفر فيه ، فبعث إلى خالد بن برمك « لعل عندك حيلة فيه بعد أن أعيتنا وإياه الحيل ، وفضل عنا الرأي » ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، تضم إلى ثلاثين رجلا من كبار الشيعة (الأنصار) مما تختاره ، قال : فركب خالد بن برمك وركبوا معه ، فساروا إلى عيسى بن موسى وأعطوه رسالة أبي جعفر المنصور ، فقال : ما كنت لأخلع نفسي وقد جعل الله عز وجل الأمر لي ، فأداره خالد بكل وجه من وجوه الحذر والطمع ، فأبى عليه ، فخرج خالد عنه وخرجت الشيعة بعده ، فقال لهم خالد : ما عندكم في أمره ؟ قالوا : نبلغ أمير المؤمنين رسالته ونخبره بما كان منا ومنه ، قال : لا ، ولكننا

نخبر أمير المؤمنين أنه قد أجاب ونشهد عليه إن أنكره ، قالوا له : افعل ، فإننا نفعل ، فقال لهم : هذا هو الصواب ، وأبلغ أمير المؤمنين فيما حاول وأراد . فساروا إلى المنصور وخالد معهم ، فأعلموه أنه قد أجاب فأخرج التوقيع بالبيعة للمهدى ، وكتب بذلك إلى الأمصار ، قال : وأتى عيسى بن موسى لما بلغه الخبر ، أبا جعفر منكرا لما ادّعى عليه من الإجابة إلى تقديم المهدى على نفسه ، وذكره الله فيما قد هم به ، فدعاهم المنصور ، فسألهم ، فقالوا : نشهد عليه أنه قد أجاب وليس له أن يرجع ، فأمضى أبو جعفر الأمر ، وشكر لخالد ماكان منه ، وكان المهدى يعرف ذلك له ، ويصف جزالة الرأي فيه .

شهادة زور :

أرايت كيف تدار الأمور في ظل دولة الاستبداد والطغيان (١١)
أرايت كيف تنتقل ولاية العهد عن طريق شهادة الزور . . وبالتآمر
الفاضح بين خليفة مستبد ووزير يتخلى عن مقتضيات الشرف والصدق
لإرضاء نزوة سيده (١١) .

لقد كانت ولاية العهد من أسباب البلاء والكوارث التي أصابت نظام الحكم الإسلامي ، وكانت من أسباب سقوط الدولة الأموية ، ومع ذلك لم يتعظ خلفاء الدولة العباسية مما جرى لأسلافهم ، ووقعوا في نفس الشرك ، وأخذوا يستخدمون الدهاء والحيل للتلاعب في العهود . ولسوف يتكرر نفس الموقف عندما أراد الخليفة موسى الهادي أن يخلع أخاه هارون الرشيد من ولاية العهد ويحل محله ابنه ، واستعان في ذلك بوزيره يحيى بن خالد البرمكي الذي شغل مكان أبيه في منصب الوزارة ، ولكن يحيى كان أشد فطنة من أبيه وأشد تحمزا من الانسياق وراء هوى الخليفة . ونصح الهادي بعدم الإقدام على هذا الفعل . . وبذلك حافظ على عرش الرشيد . ومع ذلك لم يشفع له هذا

الموقف الكريم عند الرشيد عندما ضرب ضربته البشعة . ولم يرحم شيخوخة يحيى . . وإليك تفاصيل المهزلة كما رواها الجهمشيارى :

« ثم تنكر موسى الهادى لأخيه هارون الرشيد ، وعمل على خلعه ، وتقليد ابنه جعفر بن موسى ، وهو طفل ، فعزم هارون على إجابته ، فمنعه يحيى بن خالد فبذل له موسى « الهنى والمرى » من أعمال الرقة ، فقال هارون ليحيى : إذا نزلت على « الهنى والمرى » وخلوت بابنة عمى ، يعنى زبيدة أم جعفر وكان يحبها حبا جما ، فما أريد شيئا ، فقال يحيى : إنها الخلافة ، ولعل ما تقدر أنه يبقى لك ما يبقى ، ولم يزل به حتى ثبتته ، فدعا موسى يوما بيحيى ، فلما دخل عليه أكرمه ورفق به ، فقال له : أنت الذى يقول فيك القائل :

لو يمس البخيل راحة يحيى أسمحت كفه ببذل النوال

فقال له : تلك راحتك يا أمير المؤمنين ، وقبّل يده ورجليه ، فأمر له بإقطاع ، ووصله بعشرين ألف دينار ، ثم ناظره فى خلع هارون فقال له :

يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان ، هانت عليهم أيمانهم ، وجزأتهم على حلّ العقود التى تعقد عليهم ، ولو تركت الأمر فى بيعة أخيك بحاله ، وبويع لجعفر من بعده ، كان ذلك أوكد لبيعته فقال له : صدقت ونصحت ، وأنا أنظر فى هذا . . ثم صرفه ، ثم لم تطب نفسه ، فدعا بيحيى وحبسه ، فتلطف فى أن يدعو به ويخليه ، ففعل ذلك ، فلما خلا به قال : يا أمير المؤمنين ، أرايت أن كان ما نعوذ بالله منه - يعنى الموت - قبل بلوغ جعفر ، وقد خلعت هارون (الرشيد) هل تتم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم ؟ قال : لا ، قال : فدع هذا الأمر حتى يبلغ جعفر ، فإذا بلغنا الله ذلك ، فعلى أن آخذ بين هارون حتى يبايعه عفوا ، والله والله يا أمير المؤمنين ، فإنك إن فعلت هذا ، وحدث ما نعوذ منه (الموت) وثب على هذا الأمر أكابر أهلك ، وخرج الأمر عن ولد أبيك ، والله لو لم يعقد المهدي

هارون ، لوجب أن تعقد له ، ليكون في بنى أبيك ، فشكر منه هذا القول ، وأطلقه .

وقد يتصور القارىء أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، وأن الهادى اقتنع بما قدمه وزيره يحى من مبررات قوامها الحكمة والتعقل ، ولكن بطانة السوء لم تهدأ حتى حركت نفس الخليفة وهى فى مرض الموت ليخلع أخاه ، ويعصف بالوزير الذى أصدقته النصيح ، فدعا إليه يحى وقال له : قد أفسدت على أخى ، والله لأقتلنك !

ولكن شاء الله أن يموت الهادى فى تلك الليلة . . وينجو يحى بن خالد من ميتة شنعاء لمجرد أنه لم يوافق الخليفة على نزوته . . وحول موت الهادى يقول صاحب (الفخرى) :

ولم تطل مدة الهادى ، فيقال : إن أمه الخيزران أمرت جواريا بقتله ، فجلسوا على وجهه حتى مات ، وسبب ذلك قد اختلف فيه ، فقليل : إن الخيزران كانت متبسطة فى دولة المهدي (زوجها) تأمر وتنهى وتشفع وتبرم وتنقض ، والمواكب تغدو وتروح عند بابها . . ثم بعث لها طعاما مسموما فلم تأكل منه ثم قتله . وقيل : بل السبب أن الهادى عزم على خلع أخيه هارون الرشيد والبيعة لابنه جعفر ، فعافت الخيزران على هارون ، وكانت تحبه ، ففعلت بالهادى ما فعلت ، والليلة التى مات فيها الهادى هى ليلة مات فيها خليفة وجلس خليفة وولد خليفة ، فالخليفة الذى مات هو الهادى ، والذى جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد ، والذى ولد فيها هو المأمون .

ضحايا الحقد :

هل وقعت نكبة البرامكة بتدبير من حزب أعداء النجاح الذين يأكل الحقد قلوبهم على سكان القمم العالية والمناصب السامية ؟ وهل ذهب هؤلاء النجوم

الذين أضاءوا سماء المجتمع العباسى - في عصره الذهبى - ضحايا النفوس
الوضيعة والقلوب التى تقطر غلاً وفساداً . ؟ هذا احتمال كبير لأن المكانة
السامقة التى بلغها البرامكة فى نفوس الناس كانت كفيلة بأن تحرك ضدهم
الأحقاد والضغائن ، لقد حمل البرامكة مسئولية الوزارة العباسية منذ نشأتها ،
فقاموا بالمهمة على خير وجه ، كانوا مخلصين لسادتهم خلفاء بنى العباس ،
فلم يتآمروا ضدهم ، ولم يشتركوا فى الدسائس التى كانت تحاك فى الظلام ، ولم
يجرؤ أعدى أعدائهم على أن يشكك فى ولائهم للدولة العباسية ، وهم الذين
حافظوا على عرش الرشيد حين كان ولياً للعهد حتى جلس على عرض آبائه ،
ووقفوا من خلفه ينقدون أوامره ونواهيه ، ولا يخلون عليه بالنصح الأمين ،
فلماذا انقلب عليهم ؟

هل كان كرمهم وجودهم سبباً فى نكبتهم ؟ لقد بلغ البرامكة فى هذه
الناحية مبلغاً أقرب إلى الأساطير ، حتى لا تجد لهم شبيهاً فيما تسمع وتقرأ من
قصص الكرام ، ولذلك أحبه الناس ، والتفوا حولهم ، وشادوا بذكرهم ،
فهل كان حب الناس سبباً فى إثارة النعمة عليهم ؟ هذا احتمال وارد لأن فى
النفوس الإنسانية جوانب مظلمة يسوءها أن يحظى إنسان بهذا الحب الجارف ،
فتعمل على هدمه ، وتجد لذة مريضة فى تحطيم الشوامخ ، ويسعدها أن ترى
النجوم تهوى من عليائها إلى الحضيض .

كان البرامكة كرماء بالفترة :

أجواداً بالسليقة ، عظماء بلا افتعال ، وفى ذلك يقول لك صاحب
(الفخرى) : اعلم أن هذه الدولة - يعنى دولة البرامكة - كانت غرة فى جبهة
الدهر ، وتاجاً على مفرق العصر ، ضربت بمكارمها الأمثال ، وشُدَّت إليها
الرجال ، ونيطت بها الآمال ، وبذلت لها الدنيا أفلاداً أكبادها ، ومنحتها أوفر

إسعادها ، فكان يحبى وينوه كالنجوم زاهرة ، والبحور زاخرة ، والسيول
دافعة ، والغيوث ماطرة ، أسواق الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوى
الحرمات عندهم عالية ، والدنيا فى أيامهم عامرة ، وأبهة المملكة ظاهرة ، وهم
ملجأ اللهف ، ومعتصم الطريد . ولهم يقول أبو نواس :

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من راثحين وغاد

فهل كان أبو نواس يتوقع ذلك اليوم الذى سيهوى فيه البرامكة من عليائهم
ويبكى فيه الناس على أيامهم ؟ ربما . . لأن البكاء على البرامكة لم ينقطع حتى
والرشيد لم يزل حيا . . وكانت تبلغ مسامعه هذه البكائيات برغم القرار الذى
أصدره بتحريم رثائهم ، أو الإشادة بذكرهم ، وظل بعض الناس على وفائهم
للبرامكة ، ينعونهم بكلمات حارة صادقة تؤرق مضجع الرشيد ، فيسكت عنها
حيناً ، ويقمعها أحياناً . وفى ذلك يروى الرواة أن الشرطة ضبطت إنساناً واقفاً
وفى يده رقعة فيها شعر يتضمن رثاء البرامكة ، وهو ينشده ويبكى فقبضوا
عليه وساقوه إلى الرشيد الذى بادره معتفياً : أما سمعت تحريمى لرثائهم ؟
لأفعلن بك ولأصنعن ! فقال الرجل : يا أمير إن أذنت لى فى حكاية حالى
حكيتها ، ثم بعد ذلك أنت ورأيك قال : قل .

قال الرجل : إنسى كنت من أصغر كتاب يحبى بن خالد وأرقهم حالاً . .
فقال لى يوماً أريد أن تضيقنى فى دارك يوماً . فقلت : يا مولانا أنا دون ذلك ،
ودارى لاتصلح لهذا . قال : لابد من ذلك . قلت : فإن كان لابد فأمهلىنى
مدة حتى أصلح شأنى ومنزلى ، ثم بعد ذلك أنت ورأيك . قال : كم
أمهلك ؟ قلت : سنة قال كثيراً . قلت : فشهوراً . . قال : نعم فمضيئ
وشرعت فى إصلاح المنزل وتهيئة أسباب الدعوة ، فلما تهيأت الأسباب ،
أعلمت الوزير بذلك . فقال : نحن غداً عندك ، فمضيت وتهيأت فى الطعام
والشراب وما يحتاج إليه . فحضر الوزير فى غد ومعه ابنه جعفر والفضل ،

وقال : يا فلان أنا جائع فعجل منها ما حضر . فدخلت وأحضرت منها شيئاً ، فأكل الوزير ومن معه ، ثم قام يتمشى فى الدار وقال : يا فلان فرجنا فى دارك . فقلت : يا مولاي هذه هى دارى ليس لى غيرها . قال : بلى لك غيرها . قلت : والله ما أملك سواها . فقال : هاتوا بناء . فلما حضر قال له : افتح فى هذا الحائط باباً . فمضى ليفتح . فقلت : يا مولانا ! كيف يجوز أن يُفتح باب إلى بيوت الجيران والله أوصى بحفظ الجار ؟ ! قال : لا بأس فى ذلك . ثم فُتح الباب ، فقام الوزير وابناه فدخلوا فيه وأنا معهم فخرجوا منه إلى بستان حسن كثير الأشجار ، والماء يتدفق فيه ، وبه من المقاصير والمساكن ما يروق كل ناظر ، وفيه من الآلات والفرش والخدم والجوارى كل جميل بديع . فقال : هذا المنزل وجميع ما فيه لك . فقبّلت يده ودعوتُ له ، وتحققت فإذا هو من يوم حادثنى فى معنى الدعوة قد أرسل واشترى الأملاك المجاورة لى وعمرها داراً حسنة ، ونقل إليها من كل شىء وأنا لا أعلم ، وكنت أرى العمارة فأحسبها لبعض الجيران . ثم التفت يحمى لى ابنه جعفر وقال له : يا بنى هذا منزل وعيالى ، فالمادة من أين تكون له ؟ قال جعفر : قد أعطيته الضيعة الفلانية بما فيها وسأكتب له بذلك كتاباً . والتفت لى ابنه الفضل وقال له : يا بنى فمن الآن لى أن يدخل دخل هذه الضيعة ما الذى يتفق ؟ فقال الفضل : سأحمل إليه عشرة آلاف دينار . فقال لهما : فعجلاً له ما قلتما . فكتب لى جعفر بالضيعة ، وحمل الفضل لى المال ، فأثريت وارتفعت حالى ، وكسبت بعد ذلك معه مالا طائلاً أنا أتقلب فيه إلى اليوم ، فوالله يا أمير المؤمنين ما أجد فرصة أتمكن فيها من الثناء عليهم والدعاء لهم إلا انتهزتها مكافأة لهم على إحسانهم ، ولن أقدر مكافأته ، فإن كنت قاتلى على ذلك فافعل ما بدا لك .

يقول الرواة إن الرشيد بعد أن سمع القصة رق قلبه للرجل فأطلق سراحه ، وأذن للناس فى رثائهم .

أصحاب الحاجات :

هذا هو يحيى بن خالد البرمكى الذى كانت يده أندى من الغيث ، وإذا
مسها البخيل تسربت إليه عدوى الكرم ، وفى هذا المعنى يقول القائل :

لو يمسُّ البخيلُ راحة يحيى أسمعته كفه ببذل النوال

وهو الذى كان أصحاب الحاجات يقعدون على دكان بالقرب من بيته فى
انتظار مروره فى الصباح فيتوقف عندهم وقد امتلأ وجهه بالبشر والفرح لأنه
سيلبى حاجاتهم ، وذات يوم خرج من بيته مبكراً فلم يجد منهم أحداً فأنشد :

وليس أخو الحاجات من بات نائماً ولكن أخوها من يبيت على وجل

وهو الذى قال فيه مروان بن أبى حفصة :

إذا بلغتنا العيسُ يحيى بن خالد	أخذنا بحبل اليسر وانقطع العسر
سمت نحوه الأبصار مناً ودونه	مفاوزُ تغتالُ النياق بها السفسرُ
فإن نشكر النعمى التى عمنا بها	فحق علينا ما بقينا له الشكرُ

وقد ورث يحيى فضيلة الكرم والجود عن أبيه خالد الذى روى الجاحظ عن
ثمامة قوله : كان أصحابنا يقولون : لم يكن يرى لجليس خالد دار إلا وخالد
بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن
كانت أمة ، أو أدى مهرها إن كانت حرة ، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها إما
من نتاجه أو من إنتاج غيره .

ولن نستطيع أن أمضى معك فى رواية القصص التى حفلت بها كتب
التاريخ عن كرم البرامكة الذى ملكوا به قلوب الناس . ولكن سأكتفى بأن
أسرد عليك هذه القصة وبطلها جعفر بن يحيى . . الصديق الصدوق لهارون
الرشيد . فهى لا تكشف لك ، فقط ، عن مبلغه فى الكرم والجود ، ولكنها

تكشف لك أيضا عن جرأته في اتخاذ أخطر القرارات باسم الخليفة ، ليس فقط فيما يتعلق بشئون الدولة ، ولكن مايتعلق بأخص شئون الرشيد العائلية ، حتى إنه قام بتزويج ابنة الخليفة دون أن يستأذنه في ذلك .

وخلال قصة أن جعفرأ عكف على سهرة حمراء يختلئ فيها بأخص أصدقائه وندمائيه . . فيشربون ويطعمون ، ويتخففون من قيود الوقار فيلبسون ثيابا مصبوغة ملونة إمعانا في العبث والفرقة . وقبل أن يغلق باب القاعة ، تذكر جعفر أن أحد هؤلاء الندماء - وكان اسمه عبد الملك بن صالح - قد تأخر ، فأمر حاجبه بأن يأذن له بالدخول عند حضوره ، ولا يأذن لأحد سواه وتصادف أن ذهب إلى دار جعفر رجل يحمل نفس الاسم مع اختلاف في الأخلاق والمشارب . فهو رجل ذو وقار وهيبة وحشمة وهو أحد أبناء عمومة الخليفة الرشيد . وكان الرشيد قد التمس منه أن يناديه ويشرب معه ، وبذل له في ذلك أموالا جلية فلم يفعل ، فلما تصادف ذهابه إلى دار جعفر في تلك الليلة التبس الأمر على الحاجب عندما سمع اسمه . فأذن له بالدخول . . وكانت مفاجأة مذهلة للرجل ، مثلما كانت مفاجأة لجعفر وندمائيه فغلب الانقباض عليهم والحياء لوجود هذا الرجل الوقور بينهم ، وهم على هذه الصورة المضحكة ، وفطن جعفر أن الأمر قد اشتبه على الحاجب لتشابه الاسمين ، ورأى عبد الملك الخجل على وجه جعفر فعمل على تبسيط الموقف وأبدى رغبته في مشاركتهم عبتهم وقال لهم : لا بأس عليكم . . احضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيئا ، فأحضروا له قميصا مصبوغا فلبسه ، وجلس ببساط جعفرا وبيازحه ، وقال : اسقونا من شرابكم ، فسقوه رطلا ، فقال : أرفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا . ثم باسطهم ومازحهم ، ومازال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال انقباضه وحيائه ، ففرح جعفر بذلك فرحا شديدا . وقال له : سل حاجتك ؟ قال : جئت أصلحك الله ، في ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفة فيها ، أولها أن على ديننا مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه ،

وثانيها أريد ولاية لابنى يشرف بها قدره ، وثالثها أريد أن تزوج ولدى بإحدى بنات الخليفة فإنها بنت عمه وهو كفاء لها .

وما إن فرع الرجل من سرد حاجاته حتى قال له جعفر : قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث ، أما المال ففي هذه الساعة يحمل إلى منزلك ، وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر ، وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا . . فانصرف في أمان الله .

العجيب في هذه القصة أن جعفر رواها في اليوم التالى للخليفة فأقره على كل ما فعل . . بما فيها تزويج ابنته (١١) لم يعترض على أمر اتخذ فيه جعفر قرارا . .

ثقافتهم :

وحتى تكتمل صورة البرامكة في عينيك ، لابد أن أعرض عليك جانباً من علمهم وأدبهم ، ودورهم في إعلاء شأن الثقافة في عصرهم ، سواء كانت عربية أو فارسية أو هندية أو يونانية ، فقد كانوا من سعة الأفق بحيث لم يتعصبوا لثقافة بعينها .

وفى ذلك يقول العلامة أحمد أمين فى (ضحى الإسلام) ومن الحق أن نذكر أن البرامكة - وهم فرس - لم يشجعوا الثقافة الفارسية وحدها ، بل شجعوا كل ثقافة ، فابن النديم يروى عند الكلام على كتاب (المجسطى) فى الهيئة : إن أول من عُنى بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد البرمكى ، ففسره له جماعة فلم يتقنوه ، ولم يرض ذلك ، فندب لتفسيره أبا حسان ، وسلمأ - صاحب بيت الحكمة - فأتقناه ، واجتهدا فى تصحيحه ، كما أنه أمر بتفسير كتاب فى الطب ، لمنكه الهندى ، وبعث يحيى أيضاً برجل إلى الهند ليأتيه

بعقائير موجودة في بلادهم وأن يكتب له أديانهم ، فكتب له هذا الكتاب .
فهؤلاء البرامكة وإن عُتوا بالثقافة الفارسية ، فقد عُتوا بجانبها كذلك بالثقافة
اليونانية والهندية والعربية .

ويبدو أن يحيى بن خالد بلغ من عمق الثقافة مبلغاً جعل الجهشيارى
يروى نتفاً من أقواله الماثورة التي سارت مسار الحكم : ولا بأس من أن أعرض
عليك جانباً منها :

- التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة ، والتهتة بعد ثلاث استخفاف بالمودة .
- الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ،
ويتحدثون بأحسن ما يحفظون .
- رسائل المرء في كتبه أدل على مقدار عقله ، وأصدق شاهداً على عيبه لك ،
ومعتقده فيك ، من أضعاف ذلك على المشافهة والمواجهة .
- الكريم إذا تقرأ (أى تنسك) تواضع ، واللئيم إذا تقرأ تكبر ، والخسيس إذا
أيسر تجبر .
- مطلق الغريم ، أحسن من مطلق الكريم ، لأن الغريم لا يُسلف إلا من
فضل ، والكريم لا يطلب إلا من جهد .
- وكان يقول : البلاغة أن تكلم كل قوم بما يفهمون .

وكان يقول : لست ترى أحداً تكبر في إمارة إلا وقد دل على أن الذى نال
فوق قدره ، ولست ترى أحداً تواضع في إمارة إلا وهو في نفسه أكبر مما نال فوق
سلطانه .

وكان يقول : لو كلف الله العباد الجزع دون الصبر ، كان قد كلفهم أشد
المعنيين على القلوب .

وكان يقول لكتابه : إن استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات اختصاراً .
فافعلوا .

وكان يقول : الدالة تفسد الحرمة القديمة ، وتضر بالمحبة المتأكدة .

وكان يقول : أنا خير في الإحسان إلى من أحسن ، ومُرتَهَن بالإحسان إلى من أحسنت إليه ، لأنى إذا لم أستتم إحسانا فقد أهدرتَه .

وكان يقول : ما وقع غبار موكبى على لحية رجل قط ، إلا أوجبت له على نفسى حفظه ، وألزمتهأ حقه .

وأوصى يحيى ابنه جعفرأ فقال : يا بنى انتق من كل علم شيئاً ، فإنه من جهل شيئاً عاداه ، وأنا أكره أن تكون عدواً لشيء من الأدب .

وكان يحيى إذا رأى من الخليفة الرشيد شيئاً ينكره لم يستقبله بالإنكار ، وضرب له أمثالا ، وحكى له عن الملوك والخلفاء ما يوجب مفارقة ما أنكره . ويقول : فى النهى إغراء ، وهو من الخلفاء أخرى ، فلأنك وإن لم تقصد إغراءه ، إذا نهيته أغريته .

وقال الأصمعى : سمعت يحيى بن خالد يقول : الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا بمن قبلنا أسوة ، وفينا لمن بعدنا عبرة .

وورث جعفر عن أبيه الفصاحة والبلاغة . وقد اشتهرت توقعاته على الورق وصارت محلاً لدراسة مؤرخى الأدب ، حتى قيل إنه وقع على ألف ورقة فى يوم واحد فما وجد فيها شيء مكرر ، ولا شيء يخالف الحق . وقال ثمامة بن أشرس : كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتهميل والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يُغنيه عن الإعادة ، ولو فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة ، كما استغنى عن الإعادة ، وفيه تقول عنان الجارية :

بديته وفكرته سواء	إذا التبتت على الناس الأمور
وصدر فيه اللهم اتساع	إذا ضاقت من الهم الصدور
وأحزم ما يكون الدهر رأياً	إذا عجز المشاور والمشير

ودفع رجل إلى جعفر رقعة ذكر فيها قصده إياه بأمل طويل ، ورجاء فسيح ، فوقع على ظهرها :

هذا يمت بحرمة الأمل ، وهى أقرب الوسائل ، وأثبت الوسائل ، فليعجل له من ثمرة ذلك عشرون ألف درهم ، وليمتحن ببعض الكفاية ، فإن وجدت عنده فقد ضم إلى حقه حقاً ، وإلى حرمة حرمة ، وإن قصر عن ذلك فعلياً مؤقوله ، وإلينا موثله ، وفي مائنا سعة له .

وكتب موقعاً رداً على رسالة : حَبَّ إلينا الوفاء الذى أبغضته ، وبغض الغدر الذى أحببته ، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها ، وقد رأيت غدراتها ووقعاتها عياناً وإخباراً ، والسلام .

شهداء الغرام :

لا تخلو مأساة البرامكة من فاصل رومانسى برز وسط الفواجع الدامية مثل نغم حالم سرعان ما عصفت به يد القدر . . وجرفته النكبة إلى أتونها ، ولم تبق منه سوى ذكرى حزينة ماثلة فى القلوب ، تخلب الأبواب ، وتثير العواطف ، وتستدر الدموع . . لأن الناس فى كل زمان سيكون شهداء الغرام الذين عجزوا عن تحقيق أحلامهم . . وراحوا ضحية قوى عاتية أكبر منهم ، ولا يزال الناس يتعاطفون مع قيس ولىلى ، وروميو وجولييت ، وغيرهم من عشرات العشاق الذين أحرقتهم نار التقاليد والعادات الصارمة أو الظروف السياسية التى لا تقيم وزناً للحب والعواطف .

وكانت قصة (العباسية) أخت الخليفة هارون الرشيد ، مع وزيره جعفر البرمكى من نماذج الغرام الذى نشأ وترعرع فى أحضان السياسة وقصور الحكم ، وتحت رعاية الخليفة نفسه ، ثم دارت الأيام وتغيرت الظروف وتقلبت

الأحوال ، وصارت قصة العباسية وجعفر سببا من أسباب النكبة التى حاقت بالبرامكة ، وإذا كانت فواجع الحب التاريخية قد انتهت بالقضاء على أبطالها وحدهم ، فإن قصة العباسية وجعفر قضت على مصير أسرة بأكملها ، وأتت نيرانها على بيوتهم من عروشها ، وكانت سببا فى زوال دولة احتلت فى التاريخ مكانا ساميا . . هى دولة البرامكة .

القصة مغرقة فى الرومانسية ، ولولا أن مؤرخى الإسلام الأوائل سجلوها وعرضوها عرضا وافيا لقلنا إنها من وحي الخيال ، أو من ابتداع مؤلف من كتاب الأدب الرومانسى الذى انتشر فى أوروبا فى العصور الحديثة ، وقد اكتملت للقصة كل أركان الإثارة والتشويق والنمو الدرامى . . فنحن أمام أبطال ليسوا من أخلاط الناس ، بل من قمة الهرم الاجتماعى فى العصر العباسى الأول ، والأحداث تنمو فى تطور طبيعى يتناغم مع ظروف الزمان والمكان . والأبطال يتحركون وفق إرادتهم دون إدراك لما يجبته لهم القدر إلى أن تصل الأحداث إلى قمة الفاجعة . . تماما كما كان يحدث فى المأسى الإغريقية . .

مصاهرة :

بطلة المأساة (العباسية) بنت الخليفة المهدي ، وأخت الخليفة هارون الرشيد ، وسليمة البيت العباسى الهاشمى الذى يحكم دولة الإسلام العالمية من حدود الصين إلى ساحل المحيط الأطلسى ، والذى تحكمه تقاليد صارمة فى أمور الزواج والمصاهرة .

فهو لا يسمح بحال من الأحوال بمصاهرة بيت يقل فى المنزل والشرف عن مكانة البيت المالك ، ولا يقبل لإحدى بناته أن تتزوج رجلا يفتقر إلى هذا

الشرف حتى لو كان الرجل وزيرا ونديا وخليلا لخليفة المسلمين فهو في النهاية من الموالي الفرس الذين هزمهم الإسلام ، ورغم خدماتهم الجليلة للدولة العباسية إلا أنهم لا يستطيعون الوصول إلى قمة الهرم الذى يترجع عليه البيت العباسى وأشياعه من قبائل العرب . فما بالك إذا خطر على بالهم أن ينتسبوا إلى هذا البيت الشريف عن طريق المصاهرة !! لقد سبق أن طاف هذا الخاطر بعقل القائد الفارسى الشهير أبى مسلم الخراسانى - وما أدراك من أبو مسلم الذى قامت الدولة العباسية على قائم سيفه - وما كانت لتقوم لولا شجاعته وفطنته وإخلاصه وتضحياته من أجل الهدف الذى عاش من أجله ، وهو القضاء على الدولة الأموية وإظهار الدولة العباسية .

لقد ظن الرجل - وقد أبلى هذا البلاء الحسن من أجل الدولة ، وبعد أن أصبح النظام الجديد حقيقة ماثلة بفضله - أنه يحظى بشرف مصاهرة الأسرة العباسية ، وكان حسن الظن لدرجة أنه تقدم لخطبة إحدى عقيلات البيت المالك ، هى أمينة بنت على بن عبد الله بن العباس . وما إن علم الخليفة المنصور بهذا الطلب حتى استشاط غضبا ، وثارت في نفسه نار البغضاء والحقد على هذا الموالى الذى جنح به الخيال إلى حد التطاول والجرأة على مصاهرة الأسياد ، وطلب زواج عمة الخليفة !! وأسرها المنصور في نفسه . حتى وقع أبو مسلم في يده وكانت هذه « الجريمة » أحد الذنوب التى جعلها المنصور مبررا لإعدامه « !! » .

ولكننا نعيش الآن في عصر الرشيد - حفيد المنصور - وزوج زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، وقد صار المجتمع العباسى إلى حالة من الانفراج تختلف عما كانت عليه في عهد المنصور من تزمّت وضيق . فهل كان الرشيد أكثر تساهلا من جده ، فلا يسمح لهذه التقاليد الصارمة بأن تقف في طريق العاطفة التى تربط بين قلبين عاشقين بصرف النظر عن الفوارق الطبقية ؟

وكذلك فإن المحبين في غمرة العواطف الجياشة يضعون على عيونهم أقنعة صماء لا ترى شيئا مما يحيط بهم ، لأن كل ما يعينهم هو إشباع العواطف ، والاستجابة إلى نداء القلب على حساب صوت العقل ولذلك يدفعون الثمن غالبا . .

● ولقد دفعت العباسة الثمن من نفسها ومن أولادها . .

● ودفع جعفر الثمن من نفسه ، وجبر وراءه أباه وإخوته وكل أبناء البيت البرمكى وكل من يلوذ بهم ، وراحوا جميعا وقودا لتلك المحرقة المدمرة التي أقامها لهم الرشيد .

مزاج الرشيد :

والقصة كما تناقلتها كتب التاريخ بسيطة في عناصرها . . فالخليفة الرشيد كان يحب أخته حبا جما . . ولا يستطيع الافتراق عنها ساعة . . فهي ظريفة لطيفة تستطيع أن تستحوذ على اهتمامه بحديثها العذب ، وروحها المرحية ، وهو في نفس الوقت يحب صديقه «جعفر» بنفس القوة ، ولا يقدر على مفارقتها . .

لأن جعفرا كان يحمل من الظرف والتبسُّط ما يوافق مزاج الرشيد . . على عكس أخيه الفضل فقد كان أميل إلى الجِدِّ والوقار . . فهو لا يشرب الخمر ويقول : « لو علمت أن الماء ينقص من مروةتى لما شربته » . . ومثل هذا التزمّت لم يكن يوافق ميل الرشيد إلى الفرفشة والزقططة . . ورغم أن الفضل كان أخا للرشيد في الرضاعة إلا أن اختلاف الطباع باعد بينهما . . حتى إن الرشيد طلب من أبيهما يحيى بن خالد أن يسحب خاتم الدولة من الفضل ويعطيه لجعفر . فأذعن الفضل وقال : « قد سمعت مقالة أمير المؤمنين في

أخى وأطعت وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ولا غربت عنى ربه طلعت عليه . وهى كلمة تكشف عن معدن قوى ، وروح سمحاء وعقل راجح ، وبصيرة بأخلاق الملوك ، ولذلك نأى بنفسه عن أن يشارك الرشيد فى سهراته وخلوته ونزواته ، وظل محافظا على أن يكون رجلا دولة - وبس - أما جعفر فقد استهواه حب الرشيد ، وجرفته عاطفته الحادة حتى نسى نفسه ، أو أنساه الشيطان قدر نفسه فوقع فى الحفرة التى لا منجاة منها .

لقد تكون من هذا الثلاثى المرح - الرشيد والعباسة وجعفر - فريق متماسك تجمع بينه العاطفة والألفة والحب ، وصارت سمعة الفريق حديث قصر الخلد ، بل حديث بغداد كلها ، وصار الناس يتناقلون أخبارهم ونواديرهم بشئ من النقد اللاذع ، إذ كيف يسمح خليفة المسلمين لأخته بمجالسة رجل غريب لا يربطه بها عقد أو عهد . . ووصلت الأقاويل إلى أسماع الرشيد فقال : بسيطة . . نجتمع بينهما بهالكا يخالف الشرع حتى يطمئن الناس (١١) وتفتق ذهن الخليفة عن حل هو أقرب إلى الحيلة . . ظاهره احترام الشرع ، وباطنه الخديعة والكذب . . فقال لأخته العباسية ولأخيه جعفر : تعرفان أننى لا أستطيع فراقكما . . كذلك لا أستطيع مخالفة الشرع . . وسأعقد بينكما عقدا شرعيا . . وما إن سمع الاثنان بهذا الاقتراح حتى ارتفع صوتاهما بالفرحة . . ونهضا يقبلان الرشيد ويدعوان له بطول العمر . . فقد آن الأوان لكى يجمع بينهما عش الزوجية بعد أن طال بهما العهد فى حب صامت مكبوت . . ولكن الفرحة لم تتم . . فقد عاجلها الرشيد بقوله : ولكن لا يكون بينكما ما يكون بين الرجل وحرمة (١١) .

كآبة :

وقعت العبارة الأخيرة على العباسية وجعفر وقع الصاعقة . . وذابت الفرحة

على وجهيهما . . وحلت محلها مسحة من الكآبة . . ولكنها لم يظهرها مافي
نفسيهما من لوعة . . وتقبلا القرار صامتين .

ومرت الأيام . . والثلاثة يجتمعون على هذه الحال . . يسهرون ويسكرون
ويسمرون ، فإذا حان موعد الفراق عاد كل منهم إلى مخدعه . . ولكن . . هل
كان من الممكن أن يستمر هذا الزواج الصورى بين عاشقين يود كل منهما أن
تكتمل سعادته تطبيقا لما نصت عليه بنود العقد ؟ ! .

كان من المحال أن يبقى الحال على ما هو عليه . . وكان لابد من إنهاء هذه
اللعبة الخطرة التى أراد بها الرشيد التحايل على الشريعة ، وحرمان المحبين من
الحق الذى كفلته الشريعة والطبيعة معا . . ولكن من الذى يبدأ ؟

العباسة ؟ أم جعفر ؟

فى مثل هذه المواقف الحاسمة تكون المرأة أشجع من الرجل فى التصرف
واتخاذ القرار . . ولقد قررت العباسة أن تمضى إلى غايتها حتى لو غضب أخوها
الخليفة . . وحتى لو رفض «زوجها» جعفر . . كانت تعرف أن جعفرا أجبين
من أن يغضب الرشيد ، ويخرج على طاعته . . إذن لابد من التحايل وإجبار
الرجلين على النزول على إرادتها . . ألم يصف القرآن الكريم كيد المرأة بأنه
عظيم . . وإن كيد الشيطان كان ضعيفا « ! » لقد أعيتهما كل الحيل فى إقناع
جعفر بحقها فى اللقاء به كما يلتقى كل الأزواج . . ولكنه كان يرفض وينأى
بجانبه . . إذن لا مفر من الحيلة . . فذهبت إلى أمه «عتابة» وطلبت منها أن
تقدمها إليه تحت جناح الظلام على أنها جارية . . وكان من عادة «عتابة» أن
تقدم إلى ابنها جارية عذراء كل ليلة خميس . . ولأبأس عليها أن تقدمها له -
وهو فى نشوة السكر - على أنها جارية الأسبوع . . ولكن الأم خافت على ولدها
من بطش الرشيد إذا علم . . فطمأنتها العباسة واستخدمت معها كل
أساليب الإغراء والتهديد . . حتى قبلت . . وفى الليلة الموعودة . . تسلمت

العباسة إلى مخدع جعفر دون أن يتبين ملاحظها وهو يظنها جارية . . وتم بينهما اللقاء . . وبعد أن أفاق جعفر من نشوته قالت له العباسة :

كيف رأيت خديعة بنات الملوك ؟

قال : ماذا تقصدين . . وأى بنات الملوك أنت ؟

قالت : أنا مولاتك وزوجتك العباسة وأضاءت سراجا بدو ظلام الغرفة ١١

ذعر جعفر ونهض من فراشه كمن لسعته عقرب ، وهرع إلى أمه وهو يصيح : لقد بعتنى والله رخيصة . . ١١

وتحقق للعباسة ما أرادت . . وتكرر لقاء الزوجين في السر . . وأثمرت العلاقة بينهما طفلين . . وحين خافت العباسة على ولديها من بطش الرشيد بعثت بهما إلى مكة المكرمة ليعيشا في كنف البيت الحرام ومعها من الخدم والحشم والمال ما يكفل لهما حياة كريمة .

كشف السر :

لم يكن من المعقول أن تستمر الأحداث في طريقها دون علم الرشيد ، ففى مجتمع مثل المجتمع العباسي كان من الصعب الاحتفاظ بأسرار حدث جليل مثل زواج العباسة من جعفر . . وتدخلت عوامل التآمر والسعاية لتضع القصة بكاملها أمام الرشيد . .

وكانت الواشنية زوجته زبيدة التي ساءها أن يصل البرامكة إلى ما وصلوا إليه من سوء . . فدخلت إليه لتلقى بظلال التهم والشكوك على يحيى بن خالد - والد جعفر - ورأس الأسرة البرمكية ، ولكن الرشيد دافع عن وزيره يحيى وقال لها : إنه ليس محلا للشك ، عندئذ ضربت (زبيدة) بسهمها الأخير وقالت

له : لو كان كذلك لحفظ ابنه مما ارتكبه ! بهت الرشيد وسألها : وماذا ؟
فألقت إليه بتفاصيل قصة جعفر مع العباسة . بهت الرشيد من المفاجأة وسألها
عن الدليل ، فقالت : أى دليل أدل من الولد ؟ قال : وأين الولد ؟ قالت :
فى مكة . . وأردفت : ما فى قصرى جارية إلا وقد علمت به . .

وتلقى الرشيد الصدمة العنيفة مذهولا ، واتخذ قراره الخطير بالانتقام من
أخته ومن جعفر ومن ذريتهما . . وإليك نهاية المأساة كما رواها الاتليدى فى
كتابه (أعلام الناس) :

« لما علم الرشيد أن جعفرا قد خاناه فى أخته نادى خادماه مسرورا وقال له :
يا مسرور إذا كان الليلة بعد العتمة فأتنى بعشرة من الفعلة أجلادا ومعهم
خادمان ، قال : نعم . فلما كان بعد العتمة جاء مسرور ومعه الفعلة
والخادمان ، فقام الرشيد وهم بين يديه حتى أتى المقصورة التى فيها أخته
العباسة ، فنظر إليها وهى حامل ، فلم يكلمها فى شىء ، ولم يعاتبها على ما
فعلت ، وأمر الخادمين بإدخالها فى صندوق كبير فى مقصورتها بعد قتلها
ووضعها بحليها وثيابها كما هى ، وقفل عليها فلما علم أنه استوثق بها دعا
بالفعلة ومعهم المعاول والزناويل ، فحفروا وسط تلك المقصورة حتى بلغوا الماء
وهو قاعد على كرسى ، ثم قال : حسبكم هاتوا الصندوق فدلوه فى تلك
الحفرة ، ثم قال : ردوا التراب عليه ، ففعلوا وسروا الموضع كما كان ، ثم
أخرجهم وقفل الباب ، وأخذ المفتاح معه وجلس فى موضعه والفعلة
والخادمان بين يديه ، ثم قال يا مسرور . . يا مسرور خذ هؤلاء القوم وأعطهم
أجرتهم ، فأخذهم مسرور وجعلهم فى جواليف (أجولة) وخیط عليهم بعد أن
ثقلهم بالصخر والحصى ورماهم فى نهر الدجلة .

نهاية المأساة :

وهكذا انتهت حياة العباسة في حفرة ومعها حليها وثيابها ، كما انتهت حياة الفعلة الذين واروها التراب . وهى عادة قديمة يلجأ إليها الطغاة لمسح كل أثر لجرائمهم . وانتهت حياة العباسة كما انتهت حياة جعفر على يد السياف مسرور .

أما عن مصير الطفلين فيروى الاتليدى أنه بعد مقتل البرامكة أحضر الرشيد من مكة ولدى جعفر من أخته ، فلما رآهما أعجب بهما وكانا في نهاية من الحسن والجمال ، فاستنطقهما فوجد لغتهما مدنية وفصاحتهما هاشمية ، وفي ألفاظهما عذوبة وبلاغة ، فقال لكبيرهما : ما اسمك ياقرة عيني ؟ فقال : الحسن .

وقال للصغير : وما اسمك يا حبيبي ؟ قال : الحسين . فنظر إليهما وبكى بكاء شديدا ، ثم قال : يعز عليّ حسنكما وجمالكما لا رحم الله من ظلمكما ، ولم يدريا ما يراد بهما . . ثم دعا مسرورا وأمره بقتلهما ودفنهما مع أمهما .

قبل أن تنتهى من قراءة هذه المأساة ، تقتضي الأمانة أن أقول لك إن بعض المؤرخين المتأخرين والمحدثين يرفضون تصديق هذه القصة ، ويستبعدون وقوعها ، ويطعنون فيها . . ومنهم المؤرخ ابن خلدون ، ولكنه لا يبنى طعنه على أسس موضوعية ، ولكن على اعتبارات عاطفية أشبه بالخطب . فهو يستبعد زواج العباسة : « لأنها بنت محمد المهدي بن عبد الله ابن جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبى الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي ﷺ ابنة خليفة أخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإقامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ، قريبة عهد ببداوة العروبة وسداجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش ، فأين يطلب الصون والعفاف إذا

ذهب عنها ، أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا أفقدا من بيتها ، أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى ، وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم يملكه جده من الفرس ، أو بولاء جدها وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم على عظم آباءه ، ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بآبنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها ، وفى سلطان قومها واستنكره ولجّ فى تكذيبه وأين قدر العباسة والرشيد منهم ؟ .

تلك وجهة نظر لا بأس من الاطلاع عليها حتى لو اختلفنا معها .

أولاد الأفاعى :

سردت عليك قصة العباسة أخت الخليفة هارون الرشيد مع الوزير المدلل جعفر بن يحيى البرمكى ، وكيف تطورت العلاقة العاطفية بين هذا الثلاثى العجيب تطورا دفع الرشيد إلى تزويج أخته من وزيره زواجاً صورياً ، ثم انقلب إلى زواج فعلى أثمر طفلين ، دون علم الخليفة . فلما انكشف المستور كانت الفاجعة التى أودت برأس جعفر ودفن العباسة حية . وقتل ولديها . وقلت لك إن المؤرخين الأوائل من أمثال الطبرى وابن كثير والمسعودى سجلوا هذه الحادثة ضمن تفسيراتهم لأسباب نكبة البرامكة . ومع ذلك فإن ابن خلدون ومعه بعض المؤرخين المحدثين يشككون فى صحتها دون أن يقدموا أسانيد منطقية لرفضهم لها ، فهم فقط يستبعدون ان يسمح الرشيد بزواج أخته - سليلة الشرف والحسب والنسب - من وزير صعلوك لا يرقى إلى مستوى البيت العباسى ، ثم يمضى هؤلاء الرافضون فى الاستدلال على وجهة نظرهم ، بأنه لو صح أن جعفراً خان العهد الذى قطعه على نفسه بعدم الاقتراب من زوجته العباسة ، فإن الجزاء كان ينبغى أن يقع عليه وحده ولا يمتد إلى غيره من

أفراد الأسرة البرمكية ، ولكن الطامة عمت الجميع فلم يفلت منهم أحد ، وكان التشكيل من القسوة بحيث شمل الحبس والضرب ومصادرة الأموال والضبياع والعبيد ، مما يوحى بأن هدف النكبة لم يكن عقوبة فرد ، بل تصفية أكبر مراكز القوى في العصر العباسي ، والإطاحة بالمجد الذي حققته الأسرة البرمكية منذ نشوء الدولة .

من نقطة الرفض لقصة العباسية وجعفر ، كان على هؤلاء المؤرخين أن ينطلقوا في البحث عن مبررات أكثر إقناعاً من « خيانة » فرد مارس حقوقه الشرعية مع زوجته . فهو لم يرتكب إثماً يبرر الإعدام (١١) . ويرى هؤلاء المؤرخون أن نكبة البرامكة لا تستوجب البحث والتنقيب عن أسبابها ، لأن مثل هذه التصفيات الجسدية هي نتيجة طبيعية للحكم الاستبدادي الذي يأبى على وزير أو كبير أن يشاركه السلطان . وإن على الحاكم أن يحرص على قطع الرؤوس التي تعلو فوق المستوى المسموح به - أيا كانت الخدمات التي أداها هؤلاء الوزراء للدولة - وبناء على هذا القانون غير المكتوب فإن ما جرى للبرامكة ليس بدعة ، وإنما سبقتها تصفيات بشعة منذ اليوم الأول لقيام الدولة العباسية ، فأول الخلفاء - السفاح - قتل أول الوزراء أبا سلمة الخلال الذي يرجع له الفضل في نقل الشرعية من دولة الأمويين البائدة إلى دولة العباسيين الوليدة ، وثاني الخلفاء - المنصور - صاحب سجل حافل في تصفية كل القادة والوزراء الذين ساعدوا على قيام الدولة حتى لا يكون لأحدهم فضل ، وإيماناً منه بأن السيفين لا يجتمعان في جراب واحد ، ومضى في تبرير وحدانيته من تفسير مغلوط للآية القرآنية الكريمة التي تقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » واتخذ من هذا التفسير الملتوى مبرراً لقتل أبي مسلم الخراساني قبل أن تحف دماء سيفه الذي قامت عليه الدولة ، ولم يكتف بقتل وزيره المقرب أبي أيوب المورياني ، وإنما قتل معه أولاده وأقاربه ، ولم يتورع عن قتل عمه عبد الله بن علي ، عندما لمس منه رائحة التطلع إلى المشاركة في الحكم ، رغم

الدور البطولى الذى قام به العم فى نصرة الدولة الناشئة . والخليفة الثالث - المهدي - أطاح برأس وزيره معاوية بن يسار ، ويعقوب بن داود دون ذنب ، والخليفة الرابع - الهادي - قدم لوزيره الربيع بن يونس قدحا فيه عسل مسموم تمجرعه فمات لساعته ، فإذا جاء الخليفة الخامس - هارون الرشيد - وسار على نهج أسلافه ونكل بوزرائه البرامكة ، فأى غرابة فى ذلك ؟ ولماذا نرهق عقولنا فى البحث عن مبررات لتصرفات نظام حكم يقتل بالشبهة ، وتتحكم فيه الوشايات والسعايات والدساتن (١١)

كيف أفلتوا ؟

لقد أعجنى تحليل الدكتور أحمد شلبى إذ يقول : إن السؤال لا ينبغى أن يكون : لماذا أوقع الرشيد بالبرامكة ؟ بل يجب أن يكون : كيف أفلت البرامكة من السفاح ؟ ونجوا من سيف المنصور ؟ وشدة المهدي ؟ ولماذا غفل عنهم الرشيد سبعة عشر عاما وهو السريع التغير ، الحاد المزاج ؟

وإذا كان السؤال : لماذا برزت نكبة البرامكة وفاقت فى الشهرة سواها من النكبات والمؤامرات ؟ فإن الجواب هو : إن شهرة الرشيد التى سارت بها الركبان ، أخذت معها شهرة هذه النكبة ، ولولا ما أتيح للرشيد من شهرة عالمية لم تتح لسواه ، وصيت ذائع لم يتوفر لغيره ، لظلت نكبة البرامكة حدثا عاديا محدود الانتشار .

علينا إذن أن ننظر إلى نكبة البرامكة فى إطار العصر الذى وقعت فيه ، ونتملس أسبابها فى طبيعة الحكم المطلق الذى سار عليه الخلفاء الأوائل من بنى العباس . وإذا كان ابن خلدون يرى أن نكبة البرامكة كانت ناشئة عن استبدادهم على الدولة ، واحتجائهم الأموال ، حتى إنهم غلبوا الرشيد على

أمره وشاركوه في سلطانه ، حتى انصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب (. . .) فلما المؤرخ المصرى الشيخ محمد الحضرى بك يعزو الاستبداد إلى الخليفة نفسه وليس إلى وزرائه ، حيث الحاكم يجب أن يكون صاحب السلطان الذى لا يشارك ، والحول الذى لا يقاوم ، واليد الطولى التى لا تضارعها يد ، وكبار الرجال الذين يعينونهم ، ويقومون بتأييد سلطانهم ، كثير منهم لا يقف عند حد في الانتفاع بتلك السابقة لهم ، فلا يزالون يرتفعون حتى تنبئهم إليهم أفكار الخلفاء بما يلقى إليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه ، واشتداد وطأتهم ، وعلو أيديهم ، فتدخل الغيرة في قلوب أولئك الخلفاء ، والغيرة بدء الشعور بعيوب أولئك الرجال ، فلا تزال معانيهم تتجسم ، وهفواتهم الصغيرة تعظم ، وحيث يرى هذا السلطان المستبد أن لا مناص من الإيقاع بمن كان سيفه الذى لا ينبو في الخطوب ، إشفاقا من هذا السيف أن ينقلب عليه فيقتنص منه ملكه الذى دونه كل شيء ، وليس هذا خاصا بالرشيد والبرامكة ، بل كل مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه ، إلا قليلا من الوزراء الذين يعلمون طباع الملك فيقفون عند حد لا يهيج الغيرة والحسد في قلوب الناس وقلب السلطان ، وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمر ، لأنهم يتغلبون على ما في طبع الإنسان من عدم الوقوف عند حد في العظمة والتكاثر في الأموال .

هذا منظور جديد يمكن أن نرى من خلاله أسباب نكبة البرامكة ، فالرشيد ، مهما بلغ حبه لهؤلاء الأعوان الذين صانوا له عرشه من الضياع ، لا يقبل أن يتفوقوا عليه في الشهرة والمجد ، ولا يرضى بأن ينازعوه حب الناس . وقد سبق أن سردت عليك جانبا من مكارم البرامكة وما فطروا عليه من صفات جليلة جلبت لهم حب الناس ، فلا غرابة أن تجلب عليهم نقمة الخليفة .

ولعل في هذه القصة التى يرويها الجهمشيارى في كتابه (الوزراء والكتاب) ما يعطيك فكرة عن الحالة النفسية التى أدت إلى تغير الرشيد ضد البرامكة .

والقصة يرويها الطبيب بختيشوع بن جبريل عن أبيه - وكان محبا للبرامكة - وكان في نفس الوقت طبيبا خاصا للرشيد : « دخلت على الرشيد يوما وهو جالس على بساط في قصر الخلد وأم جعفر زوج الرشيد خلف الستر ، فإذا بصيحة عظيمة ، فسأل عنها ف قيل له : يحيى بن خالد البرمكى ينظر في أمور المتظلمين ، فقال الرشيد : بارك الله فيه وأحسن جزاءه ، فقد خفف عني ، وحمل الثقل دوني ، وناب منابى ، وذكره بجميل ، ففعلت مثل ذلك أم جعفر ، ولم تدع شيئا يذكره أحد من جميل إلا ذكرته به ، فامتلاأت سرورا ، وقلت في ذلك ما أمكنني ، وخرجت مبادرا إلى يحيى بن خالد ، فخبرته بذلك ، فسر به ، ثم مضت مدة ، وذهبت إلى الرشيد يوما ، فوجدته جالسا في ذلك المجلس بعينه ، وأم جعفر من وراء الستر أيضا ، و« الفضل بن الربيع » بين يديه ، وإنى لفى ذلك إذ ارتفعت ضجة شديدة ، فقال الرشيد : ما هذا ؟ فقيل : يحيى بن خالد ينظر في أمور المتظلمين ، فقال : فعل الله به وفعل ! يذمه ويسبه ، استبد بالأمور دوني ، وأمضاها على غير رأى ، وعمل بما يريد دون إرادتى ! وتكلمت أم جعفر بنحو من كلامه ، وسبته بأكثر ما يسب به أحد . فورد على من ذلك ما أقام وأقعد ، ثم أقبل على الرشيد فقال لى : يا جبريل . . إنه لم يسمع كلامى غيرك وغير « الفضل بن الربيع » ، وليس الفضل ممن يحكى شيئا منه ، وعلى وعلى لئن تجاوزك لأتلفن نفسك ، قال جبريل : فتبرأت عنده من ذكره ، وأكبرت الإقدام على حكاية شىء منه ، ومما يجرى في مجلسه ، وانصرفت ، فلم أجسر ، وقلت : والله إن تلفت نفسى في الوفاء لم أبال ، وصرت إلى يحيى فعرفته ما جرى ، فتذاكر ما جرى في المرة السابقة من حيث الحمد والثناء وقال : إنه لم يكن منى في هذه الحال التى ذمنى فيها شىء لم يكن منى في ذلك الوقت الذى أحمدنى فيه ، ولكن المدة إذا آذنت بالانقضاء جعلت المحاسن مساوية ، ومن أراد أن يتجنى قدر . نسأله حسن الاختيار . »

وشايات :

ما الذى جعل الرشيد يتغير وينقلب على البرامكة بعد أن كانوا فى خطوة لم يبلغها أحد ؟

لا ينبغى أن نتجاهل أثر الوشايات والدسائس التى نسجها خصوم البرامكة من أجل الإيقاع بهم ، والقضاء عليهم ، والاستيلاء على مواقعهم السامية فى الدولة العباسية . كانت الدسائس والوشايات من معالم نظام الحكم العباسى .

ولا يخلو منها نظام يقوم على حكم الفرد والطغيان . لأن الوصول إلى السلطة مرهون بإرادة الحاكم ، ومن سيات الحاكم المستبد أن يفتح أذنه لسماع كل ما يتردد وراء الكواليس وفى خبايا القصور ، وعلى ألسنة العبيد والجواري . . ولا شك أن المكانة الرفيعة التى بلغها البرامكة كانت كفيلة بأن تثير عليها الأحقاد والضغائن ، وأن تشعل نار الغيرة عند أصحاب النفوس الوضيعة المنطوية على الشر والفساد ، وما أكثر الخصوم الذين كانوا يتربصون بالبرامكة ، ويتحينون الفرصة للإيقاع بهم وزوال مجدهم ، ويقف على رأس هؤلاء جميعا رجل ورد اسمه فى القصة التى رواها الطيب جبريل ، وكان شاهدا على التغير الذى طرأ على الرشيد من ناحية البرامكة . هذا الرجل اسمه الفضل بن الربيع . وأرجو ألا تنسى هذا الاسم أبدا وتضعه فى سجل الأشرار أبناء الافاعى الذين تطيب نفوسهم لسماع بلاء يصيب إنسانا ، وترقص روحهم طربا وهم يرون إنسانا يسقط من علياء النعمة إلى حضيض الفقر والحاجة . هذا الرجل هو الذى أدار الرحى التى قضت على البرامكة ، وهو الذى نسج الوشايات والدسائس والسعايات وصب فى أذن الرشيد كل السموم التى أوغرت صدره ضدهم ، ويمكنك أن تصفه - بالتعبير المصرى - بأنه محراك الشر الذى استخدم كل أساليب الدهاء والخسة والنذالة لكى يفسد العلاقة

بين الرشيد والبرامكة حتى تم له ما أراد ، ونجح في الإطاحة بالبرامكة ، واحتل مكانهم في الوزارة ، ولكنه لم يبلغ مبلغهم في العظم والجلال ، وظل يواصل حرفته في الدس حتى أشعل تلك الحرب الأهلية بسبب الصراع على الخلافة بين الأخوين : الأمين والمأمون ، وهى الحرب التى اكتوى المسلمون بنارها ، وتسببت في مصرع الآلاف من البشر وتبديد الملايين من أموال المسلمين . . كل ذلك من أجل أن يشفى هذا الرجل هوايته الدنيئة في الدس والوقعة .

ثمن النبوغ :

وقبل أن أسرد عليك تفاصيل المؤامرة الكبرى التى نسجها الفضل بن الربيع ضد البرامكة ، سوف أعرض عليك جانباً من أقوال المؤرخين فيه : يقول ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » : كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بالبرامكة ومعارضتهم ، ولم يكن لديه من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم ، فكان فى نفسه إحزن وشحناء .

وينقل ابن خلكان رواية عن عبيد الله بن سليمان بن وهب : إذا أراد الله هلاك قوم وزوال نعمتهم جعل لذلك أسباباً ، فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع ، وسعى الفضل بهم ، وتمكنه من المجالسة مع الرشيد ، فأوغر قلبه عليهم ، ومالاه على ذلك كاتبهم إسماعيل بن صبيح - وكان جاسوساً للفضل على البرامكة - حتى كان ما كان . وأشار أبو نواس إلى دور الفضل بن الربيع فى نكبة البرامكة فقال :

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهراً لم يرع عهداً ليحيى غير راع زمام آل الربيع

وبينما كان البرامكة مشغولين بهجوم الدولة ، وعظائم الأمور فيها ، كان الفضل بن الربيع يدس عليهم ، ويشى بهم ، ويؤلب الرشيد وأهله ضدهم ، وقد انتبه ابن خلدون لذلك فقال : إنه بسبب نبوغ البرامكة ، وبعد صيتهم ، كشفت لهم وجوه المنافسة والحقد ، ودبت إلى مهادهم الوثير عقارب السعاية ، وقد تولى كِبَر هذا الأمر الفضل بن الربيع ، وأشياح الفضل بن الربيع ، الذين كانوا يختفون خلف الأسباب التى قيل إنها سبب النكبة فأخذوا يعظمون صغيرها ، ويرزون خفيها لدى ولى الأمر . وإليك بعض التفاصيل التى يروها الدكتور أحمد شلبى :

فى أوائل عهد الرشيد كان الأمر كله متروكا للبرامكة ، ولم يكن للفضل بن الربيع سلطان يذكر ، وكانت الخيزران أم الرشيد صاحبة الأمر والنهى فى الدولة - تعمل على إبعاده عن القصر ، خوفا منه ومن وشايته وسعايته ، ولما يش الفضل من استرضاء الخيزران ، أراد أن يتقرب إلى الرشيد عن طريق زبيدة ، فوثق بها صلته ، وأظهر لها الخضوع والامتثال ، ولكن زبيدة وزوجها الرشيد كانا قليلى النفوذ فى حياة الخيزران ، ومن ثم لم ينل الفضل شيئا يذكر من نباهة الذكر إلى أن توفيت أم الخليفة سنة ١٧٣ هـ . يقول ابن الأثير فى ذلك « إنه لما ماتت الخيزران حمل الرشيد جنازتها ، ودفنها فى مقابر قريش ، ولما فرغ من دفنها أعطى الخاتم للفضل بن الربيع وأخذه من جعفر بن يحيى ، ويضيف : إن الرشيد قال لابن الربيع : بحق المهدي ، إنى كنت لأهم لك بالشئ من التولية وغيرها ، فتمنعنى أمى ، فأطيع أمرها ، فخذ الخاتم من جعفر .

وهكذا بدأ الفضل بن الربيع يزحف ، غير أن البرامكة كانوا أرسخ قدما ، وأقوى مركزا من أن يزحزحهم الفضل بيسر ، أو يتغلب عليهم بسهولة ، ومن ثم احتاج إلى جهد كبير ووقت طويل حتى وصل إلى بغيته ، وكان فى حيله

واشتهاره يتمثل اتجاهات أبيه ويترسم خطاه ، فكما كان الربيع والد الفضل يتخذ أبان بن صدقة كاتب أبي أيوب المورياني عينا له على أبي أيوب ، كذلك اتخذ الفضل ، إسماعيل بن صبيح كاتب البرامكة عينا له عندهم ، وكما كان الألب يستعين بالقشيري عدو معاوية بن يسار ، كذلك استعان الفضل بعلي بن عيسى بن ماهان عدو البرامكة ، وأوعز إليه أن يشي لدى الرشيد بموسى بن يحيى بن خالد ، ويتهمه أنه يكاتب أهل خراسان ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة فحبسه الرشيد ثم أطلقه .

وهناك سلاح آخر استعان به الفضل بن الربيع ، ذلك هو زبيدة ، وكان الفضل يعرف شغف الرشيد بها ويدرك مكانتها لديه ، فعرفها الفضل أن من حقها أن تأمر وتنهى في القصر كما كانت الخيزران تفعل في حياة زوجها ، وإنه لولا البرامكة الذين سلبوا صاحب السلطة نفوذه لكان لها ما أرادت ، ثم جدت ظروف ولاية العهد ، ومال يحيى وجعفر إلى العهد للمأمون ، وشددا الأيمان في الكعبة على الأمين بالوفاء لأخيه ، فاتخذ الفضل من هذا فرصة ، ليغري زبيدة بهذين وليؤكد لها أن هوى البرامكة مع المأمون على الأمين .

وهناك جانب هام من جوانب هذه القضية ، يحدثنا عنه عبد الله بن سليمان بن وهب فيقول : إن من أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم في الفضل بن الربيع ، ومن أمثلة هذا التقصير ما روى أن الفضل بن الربيع دخل على يحيى وقد جلس لقضاء حوائج الناس ، فعرض عليه الفضل عشر رقاع ، فتعلل يحيى في كل رقعة بعلة ولم يوقع في شيء منها ، فاضطرب الفضل غيظا وخرج وهو يقول :

ومتى وعسى يثنى الزمان عنانه	بتصريف حال والزمان عشور
فتنفضى لبانات وتشفى حسائف	وتحدث من بعد الأمور أمور

وهكذا اندفع الفضل بن الربيع يهيم السوء ، فأخذ يستر المحاسن ويظهر القبائح ، كما يقول ابن خلكان ، وكان من نتيجة وشاية الفضل بن الربيع أن بدت من الرشيد مظاهر فتور تجاه البرامكة .

كان هذا الفتور وذلك الانحراف أول ثمرة يجنيها الفضل بن الربيع لوشايته وإفساده ما بين الرشيد والبرامكة ، ولكن الفضل لم يكتف بذلك ، بل استمر يدس للبرامكة لدى الرشيد ، واستطاع أن يدق على وتر حساس هيج الرشيد وأثار حفيظته ، فأذاع أن البرامكة ملاحدة وثيون يحنون إلى دين أجدادهم ، وأنهم يؤيدون العلويين سرا ، ويودون نقل الخلافة إليهم ، ثم قفز بوشايته إلى القمة حين أسر للرشيد ولخاصته أن البرامكة يعملون للوصول للخلافة .

ولا يخفى عليك أن تهمة التطلع إلى الخلافة كانت كافية لقطع رؤوس البرامكة . ومن هو أكبر من البرامكة .

الوزير الأعمى :

الحديث عن البرامكة . . يثير في النفس كوامن الألم والمرارة ، لأنهم ذهبوا ضحية الحقد المتأصل عند بعض أصحاب النفوس الوضيعة الذين نعموا على البرامكة مكائتهم السامية ، وشهرتهم الفائقة ، ومجدهم الرفيع ، ومن شأن الصغار إذا عجزوا عن منافسة الكبار أن يلجئوا إلى الكيد والدس ، وكان البلاط العباسي مسرحا لهذه الحرب القذرة التي شارك فيها دهاة في فن تدبير المؤامرات ، ولاشك أن نظام الحكم العباسي ، بحكم طبيعته الاستبدادية الفردية ، كان مشجعا على أن تؤتى هذه المؤامرات ثمراتها الخبيثة ، فالذى ينفرد بأذن الخليفة يستطيع أن يصب فيها ما شاء من سموم ، وكان الخلفاء

العباسيون - على اختلاف قدراتهم النفسية - يرحبون بسماع الوشائيات ، لأنها تنقل إليهم خبايا الصدور والقصور ، وتأثيرهم بأنبياء ديب النمل في كل مكان . فالمنصور ، برغم جبروته ودهائه ، كان يأخذ بالوشائيات عملاً بالمبدأ الذى ورثه عن أخيه - إبراهيم الإمام - مؤسس ومدير الانقلاب العباسى ، وأعنى به شعار (من اتهمته فاقتله) أى من واجب الحاكم أن يأخذ بالشبهة ، ويبادر بقطع رأس من يشك فيه دون انتظار لتحقيق أو محاكمة ، وابنه المهدي سار على نهج أبيه في هذا المضمار خاصة وقد تفشت في عهده ظاهرة الزندقة . . وهى تهمة راح ضحيتها العديد من الأبرياء ، أما الرشيد فكان أشدهم قبولاً لسماع الوشائيات ، وماكان أسرع إلى البطش بإشارة من بنانه إلى خادمه الأمين مسرور السيف (١١) .

في هذا المناخ الملبد بالدسائس والمؤامرات ، سقط البرامكة من عليائهم ، ولعل الخطأ الذى وقع فيه البرامكة أنهم كانوا من العبط والسذاجة وطيبة النفس بحيث لم يعملوا حساباً لهؤلاء الخصوم الذين كانوا يسهرون الليل في التفكير والتدبير والتآمر . . بينما البرامكة يسهرون في مجالس العلم ، وقضاء شئون الناس ، وإدارة الدولة ، لقد أفرط البرامكة في الثقة بأنفسهم ، وأفرطوا في الثقة بالخليفة الرشيد ، كما فرطوا في الحذر من خصومهم ، ولما يأهبوا بما يدبرون . .

لقد نسوا أنهم في دولة يحكمها فرد ، ليس نبياً معصوماً ، ولكنه بشر له عواطف وأهواء ، وغاب عن ذهنهم أن الرشيد كان شاباً عاطفياً حاد المزاج ، متقلب الأهواء ، يستمع إلى عظة من فقيه أو صوفى فيبكي ساعة ويصلى مائة ركعة ، ثم . . تتغلب عليه نزوته فيقضئ بقية الليل بين الكأس والطاس وأحضان الجوارى . . ولم يرد على خاطر البرامكة أن ينقلب عليهم الرشيد وهم الذين ربوه وعلموه وحافظوا على عرشه ، ونابوا عنه في إدارة الإمبراطورية

العباسية بكل مالهيم من مقدرة وكفاءة . . ولم يعملوا حسابا للأفعى التى كانت تتسلل فى الخفاء لتنفث السم الزعاف فى أذن الرشيد . . واسم هذا الأفعى : الفضل بن الربيع . .

الحرب السجّال :

تذكر هذا الاسم جيدا . . وضعه فى بؤرة شعورك وأنت تبحث عن الجوانب الخفية فى نكبة البرامكة ، وستخرج منها بالعبرة . . عبرة الحرب السجّال بين الخير والشر . . والنبل والخسة . . والكرم واللؤم . . ولتتعلم من درس البرامكة كيف نجحت النفس الأمارّة بالسوء فى اقتلاع الزهور النيلة . . وقتل معانى الخير والجمال والشرف . .

كان الفضل بن الربيع أحد وجهاء البلاط العباسى ، وكان يشغل منصبا مرموقا فى دولة الرشيد ، ولكنه لم يقنع بما وصل إليه ، كانت نفسه الوضيعة تتأجج حقدا كلما سمع اسم البرامكة يتردد على ألسنة الناس ، وكانت روحه المفطورة على الخسة تقدح شرا على المكانة الرفيعة التى صنعها البرامكة بكفاءتهم وكرمهم وحسن سياستهم ، وبدلا من أن ينافسهم فى سباق القمة ، راح يدبر لهم المؤامرات ، ويؤلب عليهم قلب الرشيد ، ويتصيد لهم الأخطاء وينسج حولها الأكاذيب ، ويصبها فى أذن الخليفة مجسمة مكبرة كى يوغر صدره .

كان هذا الرجل الأفعى - الفضل بن الربيع - يعلم جيدا مدى قوة البرامكة ويعرف أن أقدامهم راسخة ، وبنيانهم متين ، ومع ذلك لم يتسرب اليأس إلى قلبه فى قدرته على هدم صرحهم ، وإزالة مجدهم ، مستخدما فى ذلك كل أسلحة الخسة ، وهل هناك أحط ممن يستعمل الرشوة فى تجنيد أحد أعوانهم

ليكون عيناه عليهما ، وينقل إليهما أخبارهما وأسرارهما ليعيد صبيها في أذن الرشيد محرفة مزورة (١١) ثم مضى لكي يمتلك قلب الرشيد بعد أن ملك أذنه . . . وعلم أن أقرب المسالك إلى قلب الرشيد هو باب النساء . . . وللنساء في حياة الرشيد تاريخ مرصود ، وأول النساء تأثيراً على الرشيد كانت أمه (الخيزران) التي كانت تعشق السلطة ، وتتدخل في شئون الدولة ، وتفرض إرادتها على الخليفة سواء كان ابنها الأول (الهادي) أو ابنها الثاني (الرشيد) وهي المرأة الوحيدة التي كانت أما لخلفتين ، ولكنها أرادت أن تجعل منها أشباحاً بلاسلطة أو نفوذ ، وعندما تولى الرشيد الخلافة - وهو في الثالثة والعشرين من عمره - قبل بالأمر الواقع ، وترك أمه تدير شئون الدولة ، عندئذ حاول الفضل ابن الربيع أن يتقرب منها لعلها تمنحه ثقتها وتعهد إليه بمنصب كبير ، ولكن الخيزران كانت تعلم الكثير عن أخلاقه وبراعته في الدس والوقيعة ، فعملت على إبعاده عن القصر اتقاء لشره ، فلما ماتت حلت محلها الملكة (زبيدة) زوج الرشيد وابنة عمه وأكثر الناس تأثيراً عليه . عندئذ لاحت الفرصة أمام الفضل ابن الربيع ليتقرب إلى زبيدة ويغريها بأن يكون لها من النفوذ في إدارة شئون الدولة ما كان للخيزران ، لولا البرامكة الذين يسيطرون على زوجها الرشيد ، ويحولون بينها وبين ماتريد . . . أو ما يريد لها الفضل . . . ووجدت هذه النعمة قبولاً في نفس زبيدة ، فبدأت تعمل على إلقاء الشكوك في نفس زوجها من البرامكة . وبذلك نجح الفضل بن الربيع في كسب أول نصير له عند الرشيد . . . ومضى في الطريق الوعر للقضاء على البرامكة .

الثاني العجيب :

وقبل أن أمضى معك في سرد ألا عيب هذا الرجل الأفعى ، ينبغي أن أحدثك عن أبيه الربيع بن يونس حتى تكتمل أمامك صورة الابن الذي رضع

عن أبيه لبان الدس والتامر ، وإذا كان المثل العربى يقول : الولد صنو أبيه ، فإن هذا المثل لاينطبق على أحد قدر انطباقه على هذا الثنائى العجيب .

فقد جاء الابن صورة كربونية من أبيه الذى اكتسب شهرة فائقة فى تدبير الدسائس والمؤامرات . ويكفى أن تعرف أصل هذا الرجل لتعلم أن الإناء ينضح بما فيه وأن ظروف النشأة الأولى تتحكم فى مسار الإنسان وخلق وطباعه مهما كانت المكانة التى وصل إليها . .

كان الربيع بن يونس وزيرا فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور ، ومع ذلك فقد تغلبت عليه وضاعة المنبت ، وحقارة الأصل ، فكانت سيرته نموذجا للحقارة وسوء الخلق ، ويتفق المؤرخون على أن الربيع كان شخصا مجهول الأصل ، مغمور النسب ، وتقول بعض المصادر التاريخية إنه كان لقيطا لايعرف نسبه أو والده ، ولذلك كان عرضة للنقد اللاذع من منافسيه وخصومه ، فقد تربى عبدا حتى بيع فى سوق النخاسة ، وتداولته الأيدى حتى أهده أحد الأمراء العباسيين إلى الخليفة المنصور فأعتقه وأعطاه حريته وأخذ يصعد فى سلم المناصب داخل القصر حتى أصبح حاجبا للخليفة الذى عهد إليه بالإشراف على بناء قصر الخلد ليكون مقرا للحكم بعد بناء بغداد ، ثم أصبح مسئولاً عن رقيق الخليفة ، وفى يده مفاتيح الخزائن . ولاشك أن صعوده إلى المراتب العليا فى الدولة كان يرجع إلى كفاءته الإدارية ، والمعروف عن هذا الطراز من الأشخاص المطعون فى نسبهم ، أنهم يمتلكون قدرات خاصة يعوضون بها النقص فى حياتهم ، ومع ذلك فإنهم لا يستطيعون التخلص من عقدة الوضاعة فيسلكون الطرق الدنيئة للوصول إلى مراكز الصدارة ، ولايتورعون عن طعن كل من يقف فى طريقهم ، وإليك هذه القصة التى تؤكد صحة ما نقول :

كان أبو أيوب المورىانى وزيرا للخليفة المنصور ، وصديقا للربيع بن

يونس ، ومع ذلك لم تمنعه هذه الصداقة من أن يحفر للمورياني حفرة أودت بحياته كى يحل محله فى منصب الوزارة ، وكان المنصور قد عهد إلى وزيره المورياني بالإشراف على تعمير إقطاع زراعى لابنه فى منطقة الأهواز ، ودفع إليه بثلاثمائة ألف درهم لينفق منها على تعمير الأرض ، ولكن الوزير تعرض لضائقة مالية جعلته يبدد الأموال فى غير الغرض الذى يريده الخليفة ، وكان المنصور كلما سأل الوزير عن أخبار الأرض زعم له أنها أثمرت ، ويقدم إليه بعض الأموال على أنها من ريع الأرض . حتى جاء يوم طلب فيه الخليفة من المورياني أن يدبر له جولة لتفقد الإقطاع . . وأسقط فى يد الوزير . . وتفتق ذهنه عن حيلة يخدع بها المنصور ، فغمر الأرض بالماء ليعوق توغل الخليفة فيها ، وأقام عددا من المنازل على حافة الضيعة وغرس فيها الأشجار والنخيل حتى تبدو له وكأنها مكتملة الزراعة . . وعندما ذهب المنصور وجد المزرعة على النحو الذى وصفناه ، وكاد يصدق أن الضيعة زرعت فعلا لولا أن شخصا ماهمسا فى أذنه بأن كل ما يراه محض اختلاق وزيف . وعليه أن ينتظر حتى ينحسر الماء . . ليرى الحقيقة . . أرضا جديبا لا زرع فيها ولا ضرع (١١)

وانتظر الخليفة . . واكتشف ان وزيره خدعه وخانه . . فقبض عليه وعاد به إلى بغداد . . وقال له : أكنت آمنا أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك فيكون جزاؤك فى العاجل إراقة دمك ، واستباحة نعمتك ، وفى الأجل حلول دار الفاسقين ، ونادى الظالمين الناكثين ؟

فقال المورياني : يا أمير المؤمنين ، إن للثم فلتات ترجع بالندم ، ولك من رسول الله ﷺ عدل السياسة ، وشرف القرابة فأقلنى (يعنى اعدلنى) .

قال : لايسعنى مع عظيم جرمك ، وجليل ذنبك ، إقالتك ، ولا العفو عنك .

ثم حبسه وحبس أخاه وبني أخيه ، وأجبروا على رد الأموال . . ثم أمر المنصور بقتل أبي أيوب المورياني .

خيانة الصديق :

ولك أن تسأل : من الذى أنبأ أمير المؤمنين بنبأ الخيانة التى ارتكبها وزيره المورياني ؟ وأبادر فأجيب بأنه صديقه الربيع بن يونس .

ولك أن تسأل : وكيف عرف الربيع بنبأ خيانة الوزير ؟

فأقول لك إن الربيع اصطنع لنفسه جاسوسا فى بيت الوزير ، اسمه أبان ابن صدقة ، وكان كاتباً للمورياني ، فاستماله الربيع ، وجعل له مرتباً شهرياً فى مقابل أن يأتيه بكل ما يدور فى مجلس الوزير ، وعرف أبو أيوب المورياني أن (أبان) يأتي الربيع كل ليلة فينقل إليه الأسرار ، فيتولى الربيع نقلها إلى مسامع الخليفة مضافاً إليها التحايش الكفيلة بتأليب الخليفة ضد وزيره . هكذا باع الربيع بن يونس صديقه المورياني من أجل وراثة منصبه الوزارى . ضاربا عرض الحائط بكل المعايير الأخلاقية ، فكل ما يهمه هو الوصول إلى مبتغاه ولو أدى الأمر إلى قتل أقرب الناس .

دم الابن :

وفى عهد الخليفة المهدي بن المنصور كان للربيع بن يونس قصة لا تقل حقارة ودناءة عن قصته مع صديقه المورياني . بل تفوقها فى البشاعة والخسة ، وكان وزير المهدي رجلاً كريم الخلق عفيف النفس اسمه أبو عبيد الله معاوية بن يسار ، ولكن الربيع بن يونس بدأ يوجه إليه سهامه كى يطيح به ويحتل مكانه .

ولكن الرجل لم يصدر عنه ما يستوجب الإطاحة به ، إذ كان موضع ثقة المهدي ، ومع ذلك لم تهدأ نفس الربيع بن يونس الشريفة ، وأخذ يقدر ذهنه بحثاً عن وسيلة يهدم بها هذا الرجل النبيل ، فلما ضاقت به السبل لجأ إلى أحد خصوم الوزير - واسمه القشيري - واختلى به ، وطلب منه أن يشتركا معا في البحث عن وسيلة لإزاحة الوزير معاوية بن يسار عن منصبه ، فقال له القشيري : إن الرجل أمين في عمله ، حاذق في إدارته ، وإنه لأعف الناس حتى لو كانت بنات المهدي في حجره لكان لهن موضعا ، كما أن ولاءه للدولة ليس موضع تهمة ، وليس متبها في دينه لأن عقده وثيق . . فكيف السبيل إلى طعنه ؟

قال الربيع بن يونس : كل ما تقوله عن الرجل عين الحق . . وليس من سبيل إلى الطعن في دينه أو معتقده . . ولكن ماذا عن ابنه عبد الله الذي يشاع عنه الزندقة . . وأنت تعلم شدة المهدي على الزنادقة (١١) .

وما إن سمع القشيري ، هذا الاقتراح حتى طابت نفسه ، وقال للربيع : هذا هو السبيل الوحيد للقضاء على الأب وابنه . . فقام الربيع وقبل جبهة القشيري واتفقا على الدس عند المهدي بشأن ابن الوزير واتهامه بالزندقة . وكان المهدي لا يرحم أحدا منهم ، وما إن رأى وزيره حتى سأله عن ابنه فقال له إنه يحفظه القرآن الكريم ، وعلمه أمور الدين ، ولكن الربيع يواصل الدس والوشاية بأن ابن الوزير زنديق وأنه يشجع أضرابه من الشبان على الزندقة ، وإنهم جميعا يحتمون بنفوذ أبيه ، فطلبه المهدي حتى دخل عليه فسأله في حضرة أبيه أن يقرأ شيئا من القرآن ، فتلعثم ، فالتفت إلى أبيه لائما ومعنفا وقال له : ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن ؟ وأسقط في يد الأب ، وقال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن فارقتني منذ مدة فنسيه ، فما كان من الخليفة إلا أن قدم إليه سيفا وأمره قائلا : قم فتقرب إلى الله بدمه (١١)

تصوروا . . حال هذا الأب الذى يأمره أمير المؤمنين بأن ينهض ويقطع رأس ولده - تقربا إلى الله - لأنه ليس حافظا للقرآن (!!)

نهض الرجل لينفذ أمر الخليفة . . ولكن قدميه لم تحملاه . . فتعثر . . وسقط يتدرج فى ثيابه . . وشهد أحد أمراء البيت العباسى هذا المشهد الفظيع فتدخل فى الأمر . . لا ليطلب من الخليفة أن يتراجع عن قراره ، ويعفو عن الابن ، ويرحم الأب ، ولكن ليعفى الأب من مهمة قتل ولده . . ويعهد بهذه المهمة إلى سواه - ورق قلب الخليفة للطلب . . وأمر أحد رجاله بأن يضرب عنق الفتى بدلا من أبيه (!!)

نهاية وزير :

نجحت خطة الربيع بن يونس فى تحطيم كرامة الوزير معاوية بن يسار . . حتى رأى مقتل ابنه أمام عينيه ، فهل اكتفى بها حدث ؟ وهل شفى غليله من الوزير ؟ وهل أفرغ ما فى نفسه من أحقاد وضغائن ؟

أبدا . . لأن النفس التى فطرت على الفساد لاتحمد ولاتحمد حتى النفس الأخير . . لقد ساءه أن ظل الوزير فى موقعه يخدم الخليفة والدولة بنفس الإخلاص الذى كان يديه قبل فجيعة فى ولده ، وتفثق ذهنه عن مؤامرة جديدة يقضى بها على ما تبقى عند الوزير من حياة . . ليقضى عليه قضاء مبرما . . ويضرب ضربته الأخيرة . . وكانت تلك القصة التى يروها الجهمشيارى فى كتابه (الوزراء والكتاب) .

لما قتل المهدي عبد الله ابن وزيره معاوية بن يسار ، قال الربيع بن يونس لبعض خدام الخليفة : لك على ثلاثة آلاف دينار ، إن فعلت شيئا لا يضرك .

قال له : وما هو ؟

قال : إذا دخل معاوية بن يسار على المهدي فصار يحضرته . قبضت على سيفه ، ومشيت إلى جانبه ، فسينكر ذلك عليك أمير المؤمنين ، فتقول : يا أمير المؤمنين قتلت ابنه بالأمس ، فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ومعه سيفه اليوم ؟

ف فعل الخادم ذلك ، فكان هذا مما أوحش المهدي من معاوية .

ويروى صاحب الفخرى قصة مماثلة :

دخل الوزير معاوية بن يسار على المهدي ليعرض عليه كتباً قد وردت من الأطراف فأمر المهدي بإخلاء المجلس ، فخرج كل من به إلا الربيع بن يونس ، فلم يعرض الوزير شيئاً من تلك الكتب انتظاراً لخروج الربيع ، فقال المهدي : اخرج يا ربيع ، فتمهل الربيع قليلاً . . فقال المهدي : ألم أمرك بالخروج ! قال : يا أمير المؤمنين ، كيف أخرج وأنت وحدك ، وليس معك سلاح ، وعندك رجل من أهل الشام اسمه (معاوية) وقد قتلت ابنه بالأمس ، وأوغرت صدره ، فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج ؟ فثبت هذا المعنى في نفس المهدي ، إلا أنه قال : يا ربيع . . إنني أثق بمعاوية في كل حال ، ولكن السواقع أن المهدي داخله الشك والحذر ، فلم يأمر الربيع بالخروج ، وإنما قال للوزير : اعرض ما تريد فليس دون الربيع سر .

قال الجهشياري : ثم صرف المهدي معاوية بن يسار عن وزارته عام ١٦٣ م واقتصر به على ديوان الرسائل ، ثم عزله عن ديوان الرسائل عام ١٦٧ وقلده الربيع بن يونس وقال له : إنني استحي من معاوية بسبب قتل ولده ، فاحجبه عني ، فحجب عنه وانقطع بداره ، واضمحل أمره ، وبذلك انفسح الطريق أمام الربيع بن يونس ليحتل مكانه بفضل قدرته على الدس والائتجار والسعاية . . وانطوت بذلك صفحة وزير من خيرة الوزراء العباسيين هو أبو عبيد الله معاوية بن يسار . . وانبسطلت صفحة وزير من أحقر وأسفل وزراء

العصر العباسى . . ومع ذلك فإن جرائمه تتضاءل إلى جانب الفظائع التى ارتكبها ابنه الفضل بن الربيع حتى تم له ما أراد من إزاحة البرامكة . .

محراك الشر :

إذا سألتنى : هل يولد إنسان شريراً بالفطرة . . حاقداً بالسليقة دنيئاً بالجبلية . . قللت لك : علم هذا عند ربى . . أما إذا سألتنى : لماذا كان الربيع بن يونس ، الوزير الأفعى ، وولده الفضل يحملان فى قلوبهما أطنانا من الحقد على البرامكة ؟ قللت لك إن النفس الأمارة بالسوء تدفع اللثيم إلى مناجزة الكرام ، والتحامل على العظماء ، فإذا عجز عن الارتقاء إلى مستواهم بالطرق المشروعة ، فإنه يلجأ إلى الوسائل الخسيسة كالدس والوقيعه والوشاية ، وقلت لك إن العصر الذى نتحدث عنه كان يسمح لهذه السموم أن تسرى وتنمو حتى تستفحل فتساقط رؤوس . . وتهوى نجوم . . وتشتعل حروب . . ويتراجع النبل والشرف والكرم أمام جمحافل الخسة والوضاعة .

هكذا كان شأن الربيع بن يونس وولده مع البرامكة وغير البرامكة من وجهاء العصر العباسى ، ولكن البرامكة كانوا أشهر ضحاياهما نظراً لمكانتهم وسمعتهم التى طبقت الآفاق . وهناك من المؤرخين من يلوم البرامكة لأنهم قصرُوا فى شأن الربيع وولده ، وكان عليهم أن يكسروا سمهما بفيض من كرمهم ، وأن يطلوا مفعول شرهما بالصلوات والأعطيات . . ولكن البرامكة لم يتنبهوا إلى هذا الأسلوب الانتهازى إلا بعد فوات الأوان . . وبعد أن حاصرتهم المؤامرات . . وصار القضاء عليهم أمراً محتوماً .

قبل أن أحدثك عن الحبائل التى نصبها الفضل - الابن - للإيقاع بالبرامكة ، لابد أن أحدثك عن نهاية الأب - الأفعى - كى تؤمن إيماناً لاشك

فيه بأن محرك الشر لا بد أن يندحر وينكسر - مهما زين له شيطانه أن الغالب . . وبذلك يتحقق العدل الإلهي في الظالمين والجبارين . .

لقد كانت حياة الوزير الأفعى الربيع بن يونس سلسلة من الدسائس والمؤامرات ضد كل من يقف في طريقه . . استطاع أن يطيح بالوزير (المورياني) بعد أن كاد له عند الخليفة المنصور ، واستطاع أن يكيد للوزير معاوية بن يسار عند الخليفة المهدي الذي لم يرحم شيخوخته وأمانته وورعه فأمره أن ينهض فيضرب عنق ابنه لأنه تلثم في تلاوة القرآن . وهذه الوسائل البشعة استطاع الربيع أن ينفرد بكرسى الوزارة ويصير الرجل الأول في بلاط المهدي ، حتى إن المهدي عندما سار إلى جرجان في آخر سفرياته عهد إلى الربيع ليكون نائبا عنه في بغداد ، وكانت المرة الأولى في تاريخ الدولة العباسية التي يجعل فيها الخليفة نائبا عنه شخصا من الموالى ، لا ينتمى إلى البيت العباسي ، وفي هذا دلالة على المكانة التي بلغها الربيع بعد أن أزاح الطامعين بمن فيهم أمراء الدولة العباسية . ومات المهدي في هذه السفارة ، وكان قد جعل ولاية العهد في ابنه موسى (الهادي) ومن بعده ابنه الثاني هارون (الرشيد) . وما إن علم الربيع بموت الخليفة حتى تعجل بأخذ البيعة للهادي وولى عهده الرشيد دون انتظار لعودة الهادي إلى عاصمة ملكه - بغداد - وكان يهدف من وراء هذا التسرع أن يكسب رضاء السيدة الأولى (الخيزران) أم الهادي والرشيد ، والتي كانت تفضل الثاني على الأول وتدبر انقلابا لتعيينه خليفة بدلا من أخيه ، وكان الهادي يعلم نيات أمه ، ولذلك كان يفضل التريث حتى تتاح له الفرصة لخلع أخيه من ولاية العهد ، فجاء تسرع الربيع على غير هوى الخليفة الجديد . فهده بالقتل ، ولكن الوزير الداهية استطاع أن يقتنع الهادي بسلامة قصده ، فعفا عنه ، وإن شئت الدقة لقلت إنه تظاهر بالشفقة عنه ، وأضمر في نفسه الخلاص منه في أقرب فرصة ، حتى إذا لاحت له هذه الفرصة أطاح بوزيره الذي دوخ الجميع بدهائه ومؤامراته ودسائسه .

أما كيف كانت نهايته فذلك موضع خلاف بين المؤرخين ، ويذكر الدكتور فاروق عمر في كتابه (الجذور التاريخية للوزارة العباسية) إن الروايات التاريخية التى بين أيدينا تعددت حول موت الربيع بن يونس ، ومعظمها يشير بطريقة أو أخرى إلى أن الخليفة الهادى له يد فى ذلك ، وسواء كان سبب قتله لتعليقه الشائن على جارية المهدي وأم ولده ، أو للشائعات التى أطلقها أعداء الربيع بأن الهادى قد غلبه حب الجارية فأصبح طوع بنائها وتحت تأثير سيدها السابق - الربيع بن يونس - والذي يبدو لنا أن الهادى لم يسامح الربيع على تأكيده البيعة بولاية العهد لهارون الرشيد ، خاصة بعد ما عاناه الهادى من ضغوط للتنازل عن حقوقه لهارون ، وإنه كما يبدو كان عازما على تنحية الرشيد من ولاية العهد وأخذ البيعة لابنه (جعفر بن الهادى) بدل هارون . . فعزم على التخلص منه بالسم (١١).

نهاية الأفعى :

تلك كانت نهاية الأفعى . . الموت بالسم . . ولو شئنا الدقة لقلنا إنها أقرب إلى نهاية العقرب التى تلدغ نفسها حتى الموت . . وتجرع الربيع من الكأس التى طالما جرعها لخصومه . وجرى عليه حكم العدالة الإلهية التى اقتضت لأرواح ضحاياها .

العجيب فى الأمر أن ابنه الفضل خلفه فى منصبه كما ورثه فى طباعه وأخلاقه ، ولم يتعظ بما جرى لأبيه ، وظل يحذو حذوه فى الدس والوقية وانفسح أمامه المجال ليأرس حرفته خاصة وإن الهادى لم يعمر طويلا ، وجاء من بعده الرشيد والبرامكة يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم ، وقد آلت إليهم كل مقاليد الأمور فى دولة العباسيين .

نظر الفضل حوله في جنبات البلاط بحثاً عن ثغرة ينفذ منها إلى السيطرة على الخليفة الجديد والتحكم في شئون الدولة ، فبدأ يتقرب من أم الخليفة (الخيزران) تلك المرأة المتسلطة التي استبدت بأمر الدولة طوال حكم ابنها الهادي ، لدرجة أنها كانت تستدعي الوزراء والقادة والحجاب وتصدر إليهم الأوامر والنواهي دون مراعاة لسلطات ابنها الجالس على العرش حتى استفزته فأرسل إليها ينصحها ويقول : « لا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذادة التبذل ، فإنه ليس من قدر الفساد الاعتراض في أمر الملك ، عليك بصلاتك وتسيحك وتبتلك ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك » . ومع ذلك لم تسمع لهذا الرجاء المهذب ، وغلبت عليها صرامتها وحبها للسلطة ، وظلت على سيرتها في التحكم حتى إذا يش الهادي من كبعها بعث إليها مهدداً : « مكانك تستوعى كلامي . . والله ، وإلا فأنا نقي من قرابتي من رسول الله ﷺ لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن فعل ذلك فليلزم ذلك ، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم ! أما لك مغزل يشغلك ؟ أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك ، ما فتحت بابك لى أو لذي » .

ولم يفلح التهديد معها فبعث إليها بطعام مسموم . فلم تأكله وعقدت العزم على الإطاحة به ويقال إنها بعثت بعض جواربها وهو مريض فقعدها على رأسه حتى خمدت أنفاسه ، فلما جاء الرشيد من بعده سارت معه سيرتها مع سلفه ، وظلت تتحكم في شئون الدولة دون أن يجزئ الرشيد على صدها ، ومن هنا لاح للفضل بن الربيع أن يلوذ بها ليتمكن — عن طريقها — أن يكون له قدر من النفوذ ولكن الخيزران كانت تعرف عن أخلاقيات الفضل — وأبيه — ما جعلها ترفض مساعيه ، وتحذر ابنها الرشيد من مؤامراته ونياته وظل الرشيد

ملتزما بوصايا أمه ، ولكن ما إن ماتت حتى انفتح الباب أمام الفضل بن الربيع ليتسلل إلى قمة السلطة .

نقطة التحول :

قلت لك إن البرامكة - يحيى بن خالد وولديه الفضل وجعفر - كانوا يهيمنون على شئون الدولة منذ تولى الرشيد الخلافة ، ولم يكن هناك من يستطيع منافستهم في حسن إدارتهم ، وكانت الخيزران تثق في ولائهم لابنها ، ولكن موتها المفاجيء عام ١٧٣ هـ جاء بمثابة نقطة تحول في مسلك الرشيد نحو البرامكة ، لقد كان خاتم الدولة في يد جعفر بن يحيى فنزعه منه الرشيد وعهد به إلى الفضل بن الربيع ، فإذا علمت أن خاتم الدولة هو رمز السلطة والنفوذ لأدركت خطورة هذا التحول المفاجيء من جانب الرشيد تجاه البرامكة وستعلم أن هذا التحول الذى حدث قبل سبعة عشر سنة من النكبة إنما هو دليل على أن نفس الرشيد تغيرت نحو البرامكة منذ وقت مبكر ، وإن نكبتهم لم تكن نزوة مفاجئة خطرت له في لحظة طيش ، فإذا أضفت إلى ذلك أن الخاتم أصبح في عهدة الفضل بن الربيع - العدو اللدود للبرامكة - فسوف تتضح لك بوادر هذه المؤامرة الكبرى التى لعب فيها الفضل بن الربيع دور محراك الشر . ونفث فيها سمومه ، وخصص لها كل ما يملك من أفانين الفساد .

ويبدو أن الرشيد - ولم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره - قد وقع تحت تأثير الفضل بن الربيع منذ تولى مسئولية الخلافة ، وإنه كان يميل إليه ضاربا عرض الحائط بتحذيرات أمه ، حتى إنه قال له وهو يدفع إليه بالخاتم : وحق المهدي - أبيه - إنى كنت لأهم لك بالشئ من التولية وغيرها ، فتمنعنى أمى ، فأطيع أمرها . . فخذ الخاتم من جعفر (١١) .

تأثير النساء :

ومن شأن هذا الاعتراف الصريح من جانب الرشيد أن يقتنع الفضل بمدى تأثير النساء على شخصية الرشيد وأولهن أمه الخيزران التي كانت تعمل على إبعاد الفضل عن ابنها . أما ثانيتهن فهي الأهم والأخطر لأنها السيدة الأولى في قلب ودولة الرشيد . وأحب النساء إليه وأقربهن إليه عسبا . . فهي زبيدة بنت جعفر ابن الخليفة المنصور ، وأم ابنه محمد (الأمين) والتي يقول عنها الدكتور مصطفى جواد في كتابه (سيدات البلاط العباسي) : هذه السيدة العظيمة قد أصبحت علما لكل سيدة كبيرة عباسية من سيدات البلاط العباسي ، كما صار زوجها هارون الرشيد علما لكل خليفة عباسي عظيم ، وعد وزيره جعفر ابن يحيى البرمكي علما لكل وزير خطير من وزراء الدولة العباسية . . ثم يقول :

ولقد أحبها الرشيد حبا جما حتى إن أخاه الهادي لما عزم على خلعه من ولاية العهد ، طاب الرشيد بذلك نفسا ، فقال له يحيى بن خالد البرمكي : لا تفعل . . فقال الرشيد : أليس أخى يترك لى الهنىء والمرىء ! فهما يسعاني وأعيش مع ابنة عمى زبيدة . . فهو قد فضل العيش معها على الخلافة ، ورأى فيها غنى عن هذه المرتبة العظيمة والأبهة الجسيمة .

لقد عرف الفضل بن الربيع مدى شغف الرشيد بزبيدة ومكانتها لديه . فبدأ ينسج شبابه من حولها حتى يستطيع أن يجعل منها أداة تحقق له مراميه الخبيثة عن طريق تأثيرها على الرشيد . وكانت خطوته الأولى لإغراءها بأن تمارس سلطات السيدة الأولى في الأمر والنهى كما كانت الخيزران تفعل في حياة زوجها - المهدي - وإنه لولا البرامكة الذين سلبوا صاحب السلطة نفوذه لكان لها من الأمر ما كان للخيزران ، فلما وجد منها أذنا صاغية ضرب ضربته الثانية ، أو خطأ خطوته المؤثرة في نفس زبيدة ، وأخذ يضرب على الوتر

الحساس الذى يثير شعجونها والذى يتعلق بابنها (الأمين) وحقه فى ولاية العهد بدلا من (المأمون) الذى يقف البرامكة من خلفه بحكم العصبيية الفارسية التى كانت تجمعهم بأمة (مراجل) وأخذ الرجل الداهية يضحك لها الأمور ، ويزين لها التدخل لدى زوجها الرشيد للحفاظ على حق الابن فى ولاية العهد ، وإفساد خطة البرامكة فى الانحياز نحو المأمون . ولابد هنا من إلقاء الضوء على مشكلة ولاية العهد التى كانت سببا من أسباب نكبة البرامكة بالرغم من الجهود التى بذلوها للحفاظ على نظام الوراثة الذى قرره الرشيد ، ولكن المساعى الشريرة التى بذها الفضل بن الربيع كانت أقوى منهم ودفعت الدولة كلها إلى حرب أهلية اشتعل أوارها لمدة خمس سنوات حتى أهلك الحرت والنسل .

ولاية العهد :

كانت ظاهرة ولاية العهد - التى ابتدعها معاوية بن أبى سفيان حين فرض على أشرف بنى هاشم أن يبايعوا لابنه يزيد فى حياته - من أسباب الخلل الذى اعترى نظام الحكم ، وأدى إلى هضم حق الرعية فى اختيار ولى أمرها ، ومع أنها كانت أحد أهم أسباب انحلال الدولة الأموية ، إلا أن خلفاءهم العباسيين لم يتعظوا من نكبة أسلافهم ، ومضوا على نهجهم فى جعل ولاية العهد فى أكثر من وريث مما أدى إلى تطاحنهم ، ولعل أفظع نتائج هذا التطاحن ما جرى على يد الخليفة هارون الرشيد عندما جعل ولاية العهد لابنه الأمين ترضية لأمه زبيدة ، وبإيعاز من الوزير الداهية الفضل بن الربيع ليجعل منها مجالا للإيقاع بالبرامكة وإليك ملخص لهذه الكارثة كما أورده الدكتور أحمد شلبى فى الجزء الثالث من موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية :

كان من الطبيعي أن تحب زبيدة ابنها الأمين ، وأن ترجو له المجد والخير ، ولكن من الحق على أن أقرر أنني - على الرغم من محاولاتى - لم أجد فيها قرأت حديثاً صريحاً من زبيدة للرشد تحضه على إثارة ابنها ، وإن كان من الحق أيضاً أن نقرر أنها لم تسلم من الإيعاز والتدبير ، ولننظر إلى القصة الآتية لنرى ما فيها من الإيعاز .

روى المسعودى فى (مروج الذهب) أن زبيدة دخلت على الرشيد فقالت له : ما أنصفت ابنك محمداً حيث وليته العراق ، وعريته من العدد والقواد ، وصيرت ذلك إلى عبدالله (المأمون) دونه ، فقال لها الرشيد : إنى وليت ابنك السلم ، وعبد الله الحرب ، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من صاحب السلم .

يقول الدكتور شلبى : لا نزاع أن هذه القصة توحى بأنها كانت يقظة تتطلع إلى مصلحة ابنها ، وتبنى له مستقبله ، وفيها إيعاز بأنها تفتن لكل ما يدور حول ابنها ولا تسمح لأحد بأن يمتاز عليه . ومن جهة التدبير فقد دل عليه ما ذكره ابن الأثير فى (الكامل) إن سبب البيعة للأمين أن خاله عيسى بن جعفر جاء إلى الفضل بن يحيى البرمكى فسأله فى ذلك وقال له : إنه ولدك وخلافته لك فوعده بذلك وسعى فيها حتى بايع الناس له بولاية العهد .

(وهو يقصد أن الأمين تربى بين يدى الفضل ، بينما تربى المأمون فى أحضان جعفر) .

داخل الكعبة :

والذى أفهمه من هذه الرواية - يقول الدكتور أحمد شلبى - أن سعى عيسى كان بتدبير أخته زبيدة ، وإنه كان يتكلم باسمها ، ثم كان هذا يتفق ورأى

بنى هاشم الذين يفضلون محمد بن زبيدة على المأمون بن مراحيل ، وقد استطاع عيسى مع الفضل أن يأتيا البيوت من أبوابها ، فقد كان البرامكة يحرصون على إرضاء زبيدة ، لتميل إلى جانبهم بدلا من انحيازها إلى جانب الفضل بن الربيع ، الذى كان يقوى ويعتمد عليها . وانضم بذلك البرامكة إلى المعسكر الذى يعمل لصالح الأمين وخضع الرشيد لكل هذه الرغبات وعقد لابنه محمد ولاية العهد سنة ١٧٥ هـ ولقبه بالأمين ، ومع ذلك فإن الرشيد لم يستشعر الراحة ولم تطب نفسه لتجاهل حق المأمون ، وبالتالي أدرك البرامكة سوء المغبة من هذا الوضع الجائر ، فليس من العدل أن تكون ولاية العهد للأمين دون المأمون مع أن الأول أحدث سنا وأقل كفاءة ، فأشار جعفر البرمكى على الرشيد بأن يبايع للمأمون من بعد الأمين . وفى مرحلة لاحقة بايع لابنه الثالث : القاسم من بعد المأمون . وأقسموا على ذلك أغلظ الأيمان .

وبذل الرشيد ومعه البرامكة أقصى الجهد رجاء أن يوفى ولاية عهده بما وعدوا ، وإن يبروا بما أقسموا عليه ، واتجهت عنايتهم إلى الأمين فهو ولى العهد الأول ، وفى يده مفتاح الفتنة إن غدر ، وتضاعفت جهودهم لأن الثقة بالأمين لم تكن قوية ، وقد سجل الرشيد ذلك فى رده على زبيدة إذ قال لها :

« إنا نتخوف ابنك على عبد الله ، ولانتخوف عبد الله على ابنك » وكان أبرز ما فعله الرشيد ليتحاشى الغدر من أولاده ، وليحمى المسلمين من فتنة عاصفة ، أن سار إلى مكة حاجا سنة ١٨٦ ومعه أولاده ووزيره والفقهاء والقضاة والقواد ، وهناك كتب كتابا على محمد الأمين وأشهد فيه من حضر بالوفاء للمأمون ، وكتب كتابا على المأمون وأشهد فيه على الوفاء للأمين ، وعلق الكتابين فى الكعبة ، وجدد العهود فيهما عليهما ، وقد أراد الوزير جعفر البرمكى أن يؤكد على الأمين أن يكون وفيا لأخيه بارا بعهده ، فطالبه أن يضيف فى قسمه قوله : « خذلنى الله إن خذلته » .

فقال ذلك ثلاث مرات .

وكان الظن أن تعمل هذه المواثيق على سد باب الفتنة ، ولكن ما حدث هو العكس تماما . . وما إن مات الرشيد سنة ١٩٣ هـ حتى انفتحت أبواب الجحيم وشبت نيران حرب أهلية بين أنصار المأمون وأنصار الأمين وكان محراك الشر في هذه الحرب الضروس هو الفضل بن الربيع الذي كان يجد سعادته فيما يصيب الناس من كوارث .

الأخوة الأعداء :

في هذا الفصل الدامي من فصول النكبة البرمكية يبرز الدور الخطير الذي قام به الوزير الأفعى الفضل بن الربيع ، في إشعال نار الفتنة بين الأخوين - الأمين والمأمون - لكي يرضى نزعته الخبيثة ، ويشفى أحقاد ، لا يهتم في ذلك أن يتقاتل الأخوان ويقضى أحدهما على الآخر ، ولا يهتم أن تتأجج نار الفتنة ، وتحول إلى جرب أهلية بين العرب الذين ناصروا الأمين ، والفرس الذين وقفوا خلف المأمون (١١) وما ظنك بحرب تدور رحاها لمدة أربع سنوات فتهلك الأرواح والأموال ، وتتسبب في خراب الديار ، والأفعى لا تزد في جحره ينثف السموم ، ويصب الزيت على النار فتزداد اشتعالا .

قلت لك إن طموحات هذا الرجل الخبيث لم تتوقف عند المكانة المرموقة التي بلغها في دولة الرشيد وفي ظل الوزارة البرمكية ، وإنما أراد أن ينفرد بالسلطة ، ويصير الرجل الأول ، بعد الخليفة - وتكون له الكلمة النافذة في إدارة الدولة العباسية ، ولم يكن لمثل هذه الآمال أن تتحقق والبرامكة على قمة السلطة ، فعقد العزم على الكيد لهم والإطاحة بهم ، ولو اقتضاه ذلك أن يتجنى عليهم ، ويلوث سمعتهم ، ويشوه فعالهم في نظر الرشيد وزوجته

الأثيرة (زبيدة) ويدبر لهم الدسائس والمؤامرات ، وقلت لك إن الفضل ورث عن أبيه فن التآمر ، بل تفوق عليه ، لأن الأب كان يخوض معارك فردية للخلاص من الوزير الذى ينافسه ، أما معركة الفضل فكانت جماعية للخلاص من أسرة بأكملها كانت لها السيادة والنفوذ على كل إدارات الدولة ، والإطاحة بهم تستلزم مخططات دقيقة ، وجهودا جبارة ، وتجنيد مراكز القوى داخل البلاط العباسى . . ولم يكن لكل هذا سوى الفضل بن الربيع .

بدأ الفضل يضع خطته فى إحكام بالغ الدقة ، وفى خطوات مرسومة كل منها تفضى إلى الأخرى ، وكانت الخطوة الأولى كسب ثقة السيدة الأولى - زبيدة فإذا نجح فى ذلك انفسح أمامه الطريق للسيطرة على صانع القرار - الرشيد - وأخذ الفضل يحرك فى نفس زبيدة عاطفة الأمومة نحو ابنها محمد (الأمين) ويزين أحقيته فى ولاية العهد ليكون وريثا لأبيه فى منصب الخلافة ، وإن عليها أن تعجل بإقناع زوجها ليتخذ القرار قبل أن يسبقها البرامكة فى إسناد ولاية العهد إلى عبد الله (المأمون) لأنهم - فى رأى الفضل - ميالون إلى المأمون بحكم العصبية الفارسية التى اكتسبها المأمون من أمه (مراجل) .

أبرياء :

وكان البرامكة أبرياء من تهمة التعصب العرقى وليس فى مصادر التاريخ ما يدل على انحيازهم للفرس رغم جذورهم الفارسية ، والصحيح أن البرامكة كانوا - بحكم ثقافتهم العالية - متفتحين على كافة الثقافات والعصبيات ، وكانوا أجل وأكبر من أن يحصرُوا أنفسهم فى إطار العصبية الضيقة ، وهم الذين أشرفوا على إدارة دولة متعددة الجنسيات والأعراق . وفى ذلك يقول الدكتور هولوغودت فرج : إن سياسة البرامكة كانت سياسة واقعية مجردة من الوسواس الحزبية ومهتمة بالخير العام ، ولا يمكن التأكد أن البرامكة أعطوا

الألوية لسكان الولايات الشرقية (الفارسية) على باقى سكان الإمبراطورية ، لأن يحبى اهتم برفاهية وسعادة السكان آمرا بتنفيذ الأشغال ذات المنفعة العامة . كحفر الأبنية الجديدة ، وقد عبر عن اهتمامه بالمدن المقدسة فى الجزيرة العربية عن طريق تمويلها ، إذ أمر بإجراء القمح على أهل الحرمين ونقله من مصر إليهم ، وأجرى على المهاجرين والأنصار وعلى وجوه أهل الأمصار وعلى أهل الدين والآداب والمروءات ، واتخذ كتابات لليتامى ، كما أنه بنى موقفا متساحا تجاه الجميع ، وإذا كان يحبى وأولاده قد أبدوا اهتماما خاصا بالآداب الإيرانية ، أو على الأقل الهندو إيراني ، إلا أنهم شجعوا أيضا تفسير ونقل الكتب العلمية اليونانية ، ووضعوا النواة الأولى لبيت الحكمة المشهور الذى أنشأه المأمون .

وأضيف إلى شهادة الدكتور فرج فأقول : لو ثارت شبهة التعصب الفارسى حول البرامكة لكان سيف المنصور أسرع إلى رقابهم فى ملح البصر ، وهو الذى تعقب الرؤوس الفارسية كلما ارتفعت وقطعها دون هوادة ، وهو الذى كان يأخذ بالشبهة ، وهو الذى اجتث رأس أبى مسلم الخراسانى عندما استشعر منه بوادر الخطر ، ولم يكن للبرامكة ، أن يمشوا على قمة الدولة العباسية منذ نشأتها عام ١٣٢ هـ لو صح اتهامهم بالتعصب الفارسى ، وهذا لاينفى أن تكون هذه التهمة سببا فى نكبتهم ، وأن تكون أحد المبررات التى دبرها الفضل ابن الربيع للوشاية بهم . وهذا ما فعله عندما حرض عليهم زبيدة ، وليس أدل على كذب هذه الفرية من أن البرامكة لم يعترضوا على ولاية العهد للأمين ، وعندما جاءهم الأمير عيسى بن جعفر - أخو زبيدة - يطلب منهم الوساطة لدى الرشيد لكى يفضل ابن أخته على المأمون ، وعدوه خيرا ، وبالفعل أشاروا على الرشيد بإسناد ولاية العهد إلى الأمين ، وكشفوا بذلك عن حصافة سياسية ، وحسن إدراك لما يجرى خلف الكواليس ، فهم بذلك أمنوا غضب

زبيدة ، كما قطعوا الطريق على الفضل بن الربيع حتى لا يستفرد بالسيدة الأولى ويحرضها ضدهم مستغلا عواطفها تجاه ابنها .

يقول الأصمعي :

والقصة التي يرويها المسعودي في (مروج الذهب) نقلا عن الأصمعي تؤكد عدم موافقة البرامكة على ترشيح المأمون (ابن الفارسية) بدلا من الأمين (ابن زبيدة العربية) وإنما نصحوا بترشيح المأمون بعد الأمين . قال الأصمعي :

بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقا شديدا فكان يقعد مرة ويضطجع مرة أخرى ويبكى أخرى ثم أنشأ يقول :

قلد أمورَ عبادِ اللهِ ذائقةً موحدِ الرأي لا نكيس ولا برم
واتركُ مقالةَ أقوامٍ ذرىَ خطلٍ لا يفهمون إذا ما معشر فهموا

فلما سمعت ذلك منه علمت أنه يريد أمرا عظيما ، ثم أمر « مسرور » الخادم بإحضار يحيى بن خالد البرمكي ، فما لبث أن أتاه ، فقال : يا أبا الفضل ، إن رسول الله ﷺ مات من غير وصية ، والإسلام جلع والإيمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة قد أمنها الله - عز وجل - بعد الخوف ، وأعزها بعد الذل ، فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبي بكر ، فكان من خبره ما قد علمت ، وإن أبا بكر صير الأمر إلى عمر فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ، ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها ، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصديره إلى من أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن وهنه وضعفه وهو عبد الله (المأمون) وبنو هاشم مائلون بأهوائهم إلى محمد (الأمين) وفيه ما فيه من الانقياد لهواه ،

والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ومشاركته النساء والإماء في رأيه ، وعبد الله المرضى الطريقة ، الأصيل الرأي ، الموثوق في الأمر العظيم . . فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بنى هاشم ، وإن أفردت محمدا بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية ، فأشر على في هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها ، فإنك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر » .

فقال يحيى : « يا أمير المؤمنين ، إن كل زلة مستقالة ، وكل أمر يتلافى ما خلا هذا العهد ، فإن الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا » .

يقول الأصمعي : فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة ، فأمرني بالتنحي ، فقامت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامها ، فما زالا في مباحثة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل ، وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد .

عرش الخلافة :

وفي القصة التي رواها الأصمعي وشهد وقائعها بنفسه يمكن أن تستتج رأى الرشيد في ولديه ، وكيف أنه يميل إلى المأمون لرجاحة عقله وعمق ثقافته وحسن تدبيره ، وإنه - الرشيد - كان يفتقد ذلك في الآخر الذي جمع من الصفات الهزيلة ما يباعد بينه وبين عرش الخلافة ، وإن الرشيد راجع نفسه بعد كتابة العهد للأمين ، وإنه فكر في خلعه وإسناد الأمر إلى أخيه ، ولكن يحيى نصحه ألا يفعل لأنه كان يعلم مغبة ذلك على وراثة العرش ، وما يحمله من نذر ومخاطر ، ووجد الحل في بقاء الأمين حيث وضعه أبوه على أن يكون المأمون تاليا له . . واستجاب الرشيد لمشورة يحيى ولكنه أضاف إلى ولاية العهد ابنا ثالثا هو القاسم ، ولم يفتن الرشيد إلى نتائج هذا المسلك الوعر الذي أدى

فى النهاىة إلى إذكاء نار الصراع بين الأملن والمأمون بتحرفض من الفضل بن الربىع الذى حررض الأملن على نقض العهد وخلع أخفه المأمون ، وإلىك تفافىل هذه القصة من بداىتها .

فى عام ١٧٥ هـ أذعن الرشفد لضغط زوفته زففة وعقد ولاية العهد لابنه (الأملن) وكان المفروض أن تقف الأحداث عند هذا الحل الذى أرضى جمىع الأطراف . فزففة فرضت ابنها فى المكان الذى ترفده له ، والفضل بن الربىع حقق مأربه فى اسامالة زففة والبرامكة لم يعترضوا ، ولكن الأجنة المضادة فى البلاط العباسى لم تسكت ، وأغضبها أن يصفر مستقبل الدولة فى فف صفى يفقر إلى الصفاف الحمففة ، وراعهم أن ففضم حق المأمون ، وبداأ هذه الاجنفة تضغط على الرشفد لفرجع فى قراره ، وففدو أن الخلففة كان مسفعدا لقبول هذه الضغوط ، وفى القصة الفف رواها الأصمعى فففل على عاف رضاه عن ابنه الأملن ، ووفد الرشفد نفسه فى فوامة لا مخرج منها سوى بالحل الذى أشار به فففى بن خالد ، وهو عقد ولاية العهد للمأمون بعاف الأملن ، ثم فكون القاسم فالها وقد ظن الرشفد أنه أنقذ العرش من مفاطر الانقسام والفن . والحقفة أنه وضعه على حافة الخطر وأشعل فففه فففل القبلة الفف انفجرت بعاف أيام قليلة من موته سنة ١٩٣ هـ .

والمؤكاف أن الرشفد كان ففرك فى أعماقه صعوبة ففففة وصففه ، وساورفه الهواجس من ناحفة ابنه (الأملن) وانفهى آخر الأمر إلى أنه ذهب إلى الحج فى عام ١٨٦ هـ وصحب معه أبناءه الفلاثة واستكتب كلا منهم عهفا بخط فففه باحترام نظام الوراثة ، وأشهد على ذلك الأمراء والفقهاء والوزراء والحجاب وفقافة الجفش . ثم وضع العهوف فى جوف الكعبة ومنع حجاب الكعبة من إخراجها ففم أى ظرف .

وففققف هواجس الرشفد ، فلم فكد الرشفد ففصعاف إلى الرففق الأعلى ، ففى بدأ الفضل بن الربىع ففعب لعبفه الخطففة وففحررض الأملن على نقض العهد ، وخلع أخفه المأمون ، وففولة ابنه ، وكانت تلك الشرارة الفف أشعلت

نار الحرب بين الأخوين . ولن أحكى تفاصيل هذه الحرب ، فحوادثها طويلة ومؤلة ، وتستطيع أن تقف عليها في كتب التاريخ الأولى مثل الطبرى وابن الأثير وابن كثير ومروج الذهب للمسعودى . ولكننى سأكتفى بأن أعرض لك ملخصا لها لترى كيف أدى زوال البرامكة إلى اختفاء صوت العقل والحكمة ، وخلو الميدان للفضل بن الربيع ليعيث في الأرض فسادا ويشعل البلاد بنار الحرب والدمار . ولك أن تسأل : هل كان من الممكن أن تقع كل هذه الأحداث الجسام لو كان البرامكة في مواقعهم إلى جانب الأمين يخلصون له النصيح ، ويشيرون عليه بالمشورة الصادقة (١١) وأقول لك بضمير مستريح إن هذه الفتنة لم تكن لتقع لو كان البرامكة أحياء . . . ويكفى أنهم استطاعوا لإخماد ثورة يحيى بن عبد الله (العلوى) أخى محمد النفس الزكية . ونجحوا فى استمالة حتى ألقى سلاحه دون إراقة قطرة دماء واحدة . . وصحبوه إلى الرشيد حتى عفا عنه .

فرسان الساحة :

لقد غاب البرامكة عن الساحة ، وتركوا وراءهم فراغا كبيرا ملأه الفضل بن الربيع بكل ما فى نفسه من أحقاد وضغائن . ولقد مات الرشيد وهو فى طريقه إلى خراسان لإخماد ثورة محلية وعندما اشتدت عليه العلة حط رحاله فى مدينة طوس — مسقط رأس الإمام الغزلى . وأمر ابنه المأمون أن يواصل السير إلى خراسان على رأس الجيش ، وأوصى إن صعدت روحه أن يتول كل ما فى عسكريه من مال وأثاث وخيل وسلاح وعبيد إلى ابنه المأمون . وأشهد على ذلك الحاضرين . . . وأوصى أن يلحق الجيش ومعه الفضل بن الربيع بالمأمون . ولكن ما إن صعدت روح الرشيد حتى نكص الفضل على عقبيه ، ورفض تنفيذ وصية الرشيد ، وأسرع إلى بغداد ليكون إلى جوار الخليفة الجديد ، وينفث فى روحه نزعته التمرد والانقلاب على أخيه وخلعه من ولاية العهد .

أما المأمون فقد كان موقفه متسقاً مع خلقه الرفيع ، فما إن علم بوفاة أبيه حتى جمع قواد أبيه وطلب منهم إعلان البيعة للخليفة الجديد ، وكتب إلى الأمين معظمها ومقدرا ، وبعث إليه بها خف حمله وغلا ثمنه من هدايا خراسان .

أما الأمر في بغداد فقد كان يدل على شر مستطير - على حد تعبير الشيخ الحضرى - فإن الفضل بن الربيع بعد عودته إلى العراق ناكثا للعهد التى كان الرشيد أخذها عليه للمأمون ، رأى أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوما وهو حى لن يبقى عليه ، فأخذ يحث الأمين على خلعه وأن يولى العهد من بعده إلى ابنه موسى ، ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا عزمه بل كان عزمه الوفاء لأخويه بما أخذ عليه الرشيد لهما من العهد ، فلم يزل به الفضل حتى أزاله عن رأيه ، فأول ما بدأ به أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمارة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم ، فلما بلغ ذلك المأمون ، وبلغه أن الأمين عزل أخاه القاسم ، أدرك أنه يدبر في خلعه ، فقطع البريد عنه ، وأسقط اسمه من الطراز ، وتحقق ما كان يتوقعه المأمون ، إذ بعث إليه الأمين ثلاثة نفر يطلبون منه أن يقبل تقديم موسى بن الأمين على نفسه في ولاية العهد ، ولكنه امتنع ، ولم يقلل ذلك من غلواء الفضل بن الربيع ، بل مازال يلح على الأمين كي يخلع أخاه المأمون .

وتأكد المأمون أن الأمور تسير من سيىء إلى أسوأ ، وأن أخاه قد أسلم زمام أمره إلى رجل السوء الفضل بن الربيع ، وإنه لا مفر من الصدام المباشر بينهما فاتخذ من التحصينات ما جعل إقليم خراسان دولة شبه مستقلة عن العراق - مهد الخلافة . وأخذ يعد العدة للقاء المحتوم ، ويتجنب إلى الناس بالعدل والإحسان ، بيما الخليفة الأمين يقضى ليله فى العبث واللهو بين أحضان الجوارى ، ويقضى نهاره فى الاستماع إلى وشايات الفضل بن الربيع ، وبذلك سار الركبان بغدر الأمين وحسن سيرة المأمون ، وانهز الفضل فرصة امتناع المأمون عن التنازل عن ولاية العهد ، فألح على الأمين فى خلع أخيه وتولية ابنه ، واستجاب الخليفة الضعيف لنصيحة الوزير الخبيث ، بل فعل ما هو

أكثر من ذلك ، إذ بعث بعض حجاجه إلى مكة المكرمة ، وتمكنوا من سرقة
العهود التي حفظها الرشيد في جوف الكعبة ، فلما جاءوا بها مزقتها (!!).

وبذلك لم يعد أمام الأخوين إلا الاحتكام إلى السيف ، وانهارت جسور
الأخوة ، وبات كل منهما يستعد للظفر بأخيه .

نهاية المأساة :

هل يستطيع رجل واحد أن يتسبب في إفساد دولة ؟ وتخريب نظامها ؟
وإشعال نار الحرب الأهلية بين أبناء الأمة الواحدة ؟ أقول لك : نعم إذا كان له
صفات وأخلاق الوزير الربيع بن يونس وولده الفضل . . لأن نزعة الشر التي
تمكنت منهما أدت إلى هدم ما بناه الأخيار . . وكان كل منهما يجد لذة غريبة في
الإيذاء والبطش والنقمة على المشاهير والعظماء - وفي طليعتهم البرامكة - رغم
أن القمة في البلاط العباسي كانت تتسع للبرامكة وغير البرامكة من الوزراء
والقادة والحجاب والكتاب ، ومنهم الربيع وابنه الفضل ، وقد بلغ كل منهما
مكانة مرموقة في الحكومة العباسية ، ولكن الحقد المتأصل في نفسيهما كان
ينضج شرًا قاتلًا . . وسما زعافا بحكم الفطرة والحيلة قبل أن يكون بفعل
الحوادث الطارئة . . وما ظنك برجل - هو الفضل بن الربيع - أشعل نار الفتنة
بين الأخوين ، الأمين والمأمون ، وأخذ يغري الأمين كي يغدر بأخيه المأمون
ويبدأه بالشر ويخلعه من ولاية العهد ، فكانت تلك الحرب المهلكة التي انتهت
بهزيمة الأمين ، وكان مسلك الفضل مع سيده الأمين قبل مصرعه في غاية
الخسة والدناءة ، فما إن لاحت له تباشير الهزيمة حتى تخلى عن سيده وتركه
وحيداً يواجه جيوش المأمون ويلقى مصيره التعتس ، أما هو - الفضل - فقد لجأ
إلى وكر يعصمه من القتل ، وبقي في مخبئه كالفأر المدعور يرقب النار التي
أشعلها بيده القدرة وهي تفتك بعشرات الألوف من أهل بغداد . فلم يبق فيها
بيت إلا وفيه قتيل أو جريح أو أسير . .

ظل الرجل الأفعى فى وكره حتى دخل المأمون بغداد دخول الظافرين ، فتوسل إليه الفضل كى يصفح عنه ويغفر له جريمته الكبرى ، والمدهش أن المأمون - الذى فطرت نفسه على حب العفو - غفر له ما تقدم من ذنبه واكتفى بأن تركه يعيش مهملاً حقيراً مثل منقطع المتاع . والأكثر دهشة أنه مات ميتة طبيعية ولم يلق حتفه على النطع مثلما حدث لكل الوزراء الذين سبقوه ومنهم أبوه الربيع بن يونس . وهذه إحدى غرائب التاريخ العباسى .

إن مسلك الأب وابنه شغل بال المؤرخين والباحثين الذين تابعوا نشاطهما الأسود ، وراحوا يبحثون عن الأسباب التى جعلت كلا منهما يحرك حوادث التاريخ مدفوعاً بنزعى الحقد والشر . وإذا كان هناك من يفسر التاريخ تفسيراً مادياً ، فإن هناك من يفسره تفسيراً نفسياً ، ويبحث فى ظروف النشأة الأولى لحياة الطغاة والجبارين ، ويرى فيها المحرك الأساسى لكل ما ارتكبه فيما بعد من جرائم وآثام ، فلاشك أن طفولة «هتلر» القاسية كان لها تأثير كبير على مجرى حياته ، وإن حياة الصعلكة والفقر والضياع التى عاشها فى شوارع فيينا كانت سبباً فى نغمته على العالم وازدراؤه للإنسانية جمعاء . . ولم يتورع أن يشعل حرباً ضروساً أهلكت خمسين مليوناً من البشر ، ولاشك أن ظروف النشأة غير السوية التى عاناها جبار مشهور هو زياد بن أبيه - أو ابن سمية كما كان يسمى - تركت بصماتها المؤثرة على حياته ، فقد ولد وهو لا يعرف له أباً ، إلى أن ألحقه معاوية بن أبى سفيان بنسبه كئمن لصفقة سياسية فى صراعه مع على بن أبى طالب ، انتهت بانضمام زياد إلى معسكر معاوية ، وبطشه بأهل العراق - شيعية على - بطشاً صار مضرب الأمثال فى العنف ، ولم يكن غريباً أن يأتى الولد - عبيد الله - على صورة أبيه ، وأن يتم على يديه مقتل الحسين فى مذبحة كربلاء (١١) وكان شأن زياد وولده ، كشأن الربيع وابنه الفضل ، فى توريث أسوأ الصفات ، وأسفل الأخلاق .

طفولة تعيسة :

ولو فحصت في تاريخ الطغاة فسوف تلاحظ أنهم ذاقوا في طفولتهم مرارة الحرمان من عطف الأب ، أو حنان الأم ، أو احترام المجتمع ، وتظل هذه المرارة تسرى في مجرى حياتهم كمسرى السدم في الشرايين ، حتى تتحول إلى مركب نقص يجد متنفسه في الإيذاء والانتقام من البشر أجمعين ، ولأستاذ التاريخ الإسلامى الدكتور أحمد شلبى دراسة نفسية بديعة في شخصية الربيع ابن يونس وولده الفضل ، اعتمد فيها على أبحاث عالم النفس Adler في تكوين مركب النقص ، وأبحاث عالم آخر هو Hadfield عن ظروف النشأة الأولى عند الطفل وأثرها في تكوين شخصيته .

أما Adler فيبدأ ببيان الفرق بين مركب النقص ، والإحساس بالنقص ، وهو يرى أن مركب النقص عقدة لا شعورية تبقى كامنة في لاشعور الفرد وتظهر نتائجها في تصرفاته ، دون قصد منه ، وهذه العقدة اللاشعورية تتكون خلال السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل . وبالرغم من أن الطفل يبدو في هذه السن صغيرا ساذجا إلا أنه يسجل كل ما يحيط به ، وتتكون عنده العقدة النفسية ومركبات النقص ، أما الضعف الطبيعى الذى يبدأ به الطفل حياته فإنه يتزايد إذا عومل الطفل معاملة سيئة ، أو صادف بيئة يحس فيها أنه تعيس ، أو كان به نقص عضوى ، أو إحساس بنقص ، ومن الأمثلة التى تضاعف عوامل الضعف الطبيعى في الطفل : التهكم والاستهزاء والقسوة والزجر والانتهاز ، وهذه المضاعفات التى أنشأت مركب النقص تدفع الطفل إلى طريق من ثلاثة :

١ - أن يصاب بصدمة عصبية تجعله يميل إلى الإذعان والخضوع إلى بيئته ، والاعتناق بتخلفه عن أقرانه .

٢ - أن يعمل طيلة عمره ليعوض ما به من نقص .

٣ - أن يتصارع مع البيئة التى يعيش فيها ، فيكون دائم الهجوم على من يظن أنه يعوقه ، ويسهل عليه أن يتراجع وينهزم إذا ضعف عن الهجوم .

ويظل الطفل ، بعد ما يشب ، متأثرا تأثرا لا شعوريا بما سجله إبان السنوات المبكرة من حياته ، ومن أجل هذا نجد الطفل الذى عومل معاملة سيئة فى طفولته ، يصير عندما يكبر أبا مستبدا ، أو زوجا قاسيا طاغية ، لينفس عن الضغط الذى احتبسه فى نفسه أيام طفولته .

أما الإحساس بالنقص فهو مظهر شعورى يشعر به كل شخص عادى فى مواقف كثيرة من حياته العادية ، دون توقف على سن معينة ، وهذا الشعور قد يزيد عن الحد العادى ، فينقلب إلى سمة من سمات الشخصية المرضية فيشعر دائما بأنه غير قادر على مجازاة غيره بالطرق المشروعة ، فيعتمد إلى الوسائل المستترة التى يستطيع عن طريقها أن ينال من منافسه ، ويجهد الإنسان نفسه ليتفوق على الآخرين ، وتنمو هذه الرغبة فى التفوق مع نمو الشخص لأنها ضرورة ذاتية للحياة نفسها ، فهو دائما يكافح طلبا للغلبة والانتصار لينقل نفسه من النقص إلى المال ، ويستمر الإنسان فى هذا النضال السلمى مالم تقف عقبة فى سبيل نجاح محاولته ، فإذا اعترضته صعوبات وعقبات من جهة الآخرين فإن ذلك يؤدى به إلى الغضب الذى يتمخض عنه سلوك عدائى .

ويرى Adler أن الشخص الذى تكون فيه مركب النقص فى طفولته وحاول أن يعوض هذا النقص عندما كبر فاعترضته عقبات من جهة الآخرين ، هذا الشخص إذا كان موهوبا متفوقا عقليا ، فإن اصطدامه بمن يعوقه عن الوصول إلى الكمال يكون عنيفا قاسيا ، وربما لجأ إلى طرق شتى من الانحراف ليعبر عما يخالج نفسه من نزعات مكبوتة كالحيل والكيد دون اعتبار للقيم والمعايير الأخلاقية .

الحماية والأمن :

أما Had Field فموجز نظريته أن المطلب الرئيسى الذى يحتاج إليه الطفل هو : الحماية والأمن ومن أجل هذا كان محتاجا لمن يحميه ، ويقيه الخطر ،

ويمده بالطعام والشراب ويهيئ له العناصر اللازمة لحياته ، وحاجة الطفل ليست حيوية فقط ، ولكنها أيضا نفسية ، والذي يحمي الطفل عادة ويمده بحاجاته هي الأم لأنها تستجيب بطبعها إلى هتافه الصامت ، وتكمل نقصه ، وتقوى ضعفه بإحاطته بجو من الحب ، فتقضى الأم بذلك حاجات الطفل ، لا على أنها واجبات تؤديها ، وإنما على أنها لذة تمارسها ، وتجد في ذلك سعادة ونشوة ، أما الطفل فإن حاجته إلى الحماية والطعام تصبح عنده وسيلة ينشد بها ما هو أعظم عنده منها ، وهو حب أمه وشغفها به ، وهو ييكي لتسرع إليه فيحس أنها تحبه ، ويترتب على ذلك أن يصبح حب الأم للطفل أهم مطالبه ، والمحور الهام في حياته والهدف الأسمى له من الناحيتين الحيوية والنفسية ، وعندما يتأكد الطفل من حب أمه وحمايتها ووقايتها له تترى فيه الثقة بالنفس ، ويستطيع أن يواجه الحياة ، ويلقى بنفسه في متاعبها دون تهبب ، لأنه واثق من أنها ستنتشله إذا أخفق ، وهو بذلك يهيئ نفسه للمستقبل ، ويحس بأنه تخلص رويدا رويدا من حاجته للحماية ويكون حريته واستقلاله ، ويدخل معمعة الحياة ، ويقتحم صنوف المخاطر ، محتملا العبء والتبعة وحده دون اعتماد على شخص آخر .

والطفل يعكس ما يراه في طفولته ، فإذا أحس بأنه محبوب ، تعلم هو أن يحب الآخرين ، وعلى هذا فالطفل الذي حظى بحب أمه في طفولته ينشأ اجتماعيا يحب الناس ، ويصير وفيا لأصدقائه ، قرينا موفقا في زواجه ، فإذا حرم الطفل هذا الحب ، كانت نظرته للحياة نظرة مغايرة ، وغمرته حالة من الاضطراب النفسى ، ويفقد الثقة بالنفس ، وتشمله حساسية الخوف من تحمل المسئوليات ، فلا يلقي بنفسه في المخاطر ، ولا يمارس التجارب ، ويصبح عصيبا حاد المزاج . كما أن حرمان الطفل من الحب يجعله لا يحب الآخرين ، وإنما يحب نفسه ليعوضها ما فقدته وبهذا يصير أنانيا مبغضا غيره ، ثم يصير عصيبا ثوريا ، ثم إن حرمان الطفل من الحماية يجعله يحس بأنه مهدد ، عرضة لعدوان الآخرين ، وينظر للعالم نظرة عدائية فيتصدى للناس ويعاديهم .

ويأخذ الدكتور أحمد شلبى هذه الأفكار النفسية ويبحث بها عن العلة الكامنة فى نفس الربيع بن يونس والتي تسربت منه إلى ولده الفضل . ذلك أن طفولة الربيع كانت طفولة بائسة حقاً ، طفولة تعدة شقية ، فهو كما يقول الأصفهاني نقلاً عن إله أبى فروة « لقيط ، وجد منبوذا ، فكفله يونس بن أبى فروة » أما الجهشياري فيروى أن يونس بن أبى فروة كان شاطراً من شطار المدينة - أى لصاً يقوم بأعمال السلب السريع - واتصل بجارية فجاءت بالربيع ، فولد عبداً رقيقاً ، فابتاعه زياد بن عبد الله الحارثى خال الخليفة السفاح ، ويتحدث الربيع عن نفسه فيقول : كنت فى خمسين وصيفاً أهدوا للخليفة ، ففرقنا فى خدمته ، فصرت إلى ياسر صاحب وضوئه أعاونه فى عمله .

تلك هى طفولة الربيع القائمة : لقيط منبوذ ، أو عبد اشترى بالمال ، أو أحد خمسين وصيفاً أهدوا إلى المنصور ، ثم يكون حظّه أن يلتحق بمن يحمل الإبريق للخليفة ، وكل هذا يدلنا - يقول الدكتور أحمد شلبى - على أن الربيع عانى طفولة مرة ، وكان هدفاً لكثير من الزجر والانتهاز والتهكم والاستهزاء والقسوة ، وقد رأى غيره من الأطفال السعداء الباسمين المحظوظين فى قصر الخليفة ، ووازن بين ذلك وبين حرمانه وتعاسته وما يعانیه من إهمال وازدراء ، فتكون عنده مركب النقص . . هذا عن الربيع ، أما الابن - الفضل - فقد كان مثقلاً بالعبء الذى ورثه له أبوه ، لقد كان ابن لقيط ، وطالما عانى فى طفولته من جراء هذا العار ، ولما كان الأب ذكياً موهوباً بلا شك ، فإنه لم يقنع بالحالة المتواضعة التى نشأ فيها ، كما لم يرقه أن يبذل العمر كله مجداً ليعوض ما به من نقص ، وإنما أراد الطفرة ، وحاول أن يصل بسرعة إلى هدفه وبغيته ، ولذلك لجأ إلى الطريق الثالث الذى تحدث عنه Adler فتصارع مع البيئة التى نشأ فيها ، وكان دائم الهجوم على من يظن أنه يعوقه عن الوصول إلى غرضه ، وسار الفضل سيرة أبيه ، واتضح فيه نظرية Adler لأنه عندما فشل لم يثبت أمام العاصفة ، وإنما تراجع واختفى .

وهكذا عانى الربيع وابنه الفضل طفولة تعسة كونت فيها مركب النقص ، فإذا سرنا معها إلى عهد الرجولة ، وجدنا أنه لم يتوفر لهما في هذا العهد راحة النفس ورضا الضمير ، على الرغم من أن الظروف قذفت بهما إلى المجد ، ووضعتهما في أسمى المناصب ، وعلى العكس قذفت بهما هذه المناصب إلى العيش مع أقران وأتراب يفضلونها في كثير من الصفات التي كانت ذات خطر عظيم في تلك الأيام ، لقد عاشا مع البرامكة . . ومع آل سهل . . ومع معن ابن زائدة . . ومع معاوية بن يسار . . ومع طاهر بن الحسين . . وغيرهم من السادة والقادة والناهبين ، فظهر في الربيع وابنه الإحساس بالنقص بالقياس إلى هؤلاء الأقران ، ولم تقف المسألة عن هذا الحد ، إذ لم يغفل أقران الربيع وابنه عن انحطاط هذين وانحدارهما عن النظراء والأقران ، فكثيرا ما نكأ هؤلاء جراح الربيع والفضل ، وكثيرا ما قذفوهما بالحقيقة المرة ، وإليك بعض ما رواه الجهشيارى . .

قال الربيع يوما لرجل كرر الترحم على أبيه في حضرة المنصور : كم تكرر ذكر أبيك وتترحم عليه ؟ فقال له الرجل : إنك معذور في نقدك ، لأنك لم تذق حلاوة الآباء (١١) وتنازع الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى البرمكى في حضرة الرشيد ، فقال جعفر للفضل : يا لقيط (١٢) فاضطرب الفضل . وقال للخليفة : اشهد يا أمير المؤمنين ، فقال جعفر للرشيد : تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهدا يا أمير المؤمنين وأنت حاكم الحكام ! فهو في هذه القصة طعنه في نسبه ، وطعنه في علمه ومعرفته بمخاطبة الملوك .

لقد أراد الربيع وولده أن يكتمل لهما المجد ، ولكن هيهات هذا وفي القصر معاوية بن يسار ، والبرامكة ، وغيرهم من الأجداد المغاوير ، ويقول ابن خلكان : إنه لما آل الأمر للرشيد ، واستوزر البرامكة ، كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم ومعارضتهم ، ولم يكن من المقدرة ما يدرك به اللحاق بهم ، فكان في نفسه إحزن وشحناء ، فسعى بهم ، وأوغر قلب الرشيد عليهم .

البيئة الجديدة :

ويواصل الدكتور أحمد شلبي تحليله للحالة النفسية للربيع وابنه الفضل بعد أن تكون مركب النقص فيها منذ طفولتهما التمسعة ، فلما شبا وقذف بهما حظهما وذكاؤهما إلى الأمام صدمتا بالبيئة الجديدة التي كونت فيهما الإحساس بالنقص ، ولم يكن لهما من المقدرة مايشجعهما على مواجهة هذه الظروف وجها لوجه ، ثم كانت لهما موهبة ظاهرة في الناحية العقلية ، ومن أجل هذا ظهر فيهما الانحراف في التعبير عما بنفسيهما من نزعات مكبوتة ، فلجأ إلى التحايل ، والكيد ، والدس دون أى اعتبار للقيم والمعايير الأخلاقية .

ومسألة أخرى يستقيها الدكتور شلبي من كلام Had Field وهى مسألة كون الربيع لقيطا أو ثمرة التقاء غير شرعى بين يونس بن أبى فروة (اللص العريق) وبين أمة (جارية) تقوم بالمدينة ، واشتراه زياد بن عبد الله ، وسواء أكان هذا وذاك فقد حرم الربيع أمه ، وحرم حب أمه ، وهذا الحرمان جعل الربيع حذرا ، لا يواجه العالم بصراحة ، وإنما يواجهه بغموض والتواء ، كما جعله أنانيا ، مبغضا لغيره ، عصبيا ثوريا ، يحس بأنه هدف لهجوم الآخرين ، فيبادر هو بالهجوم عليهم ، وتعمق في نفسه نظرة عدائية بالنسبة للعالم ، وقد توفرت كل هذه الاتجاهات فى الربيع ، كما رثها ابنه الفضل .

دراسة مقارنة :

وبناء على هذا التفسير النفسى لحالتى الربيع وابنه ، يعقد الدكتور شلبي دراسة مقارنة تبين لنا مركز الرجلين بين أقرانها فى هذه البيئة الجديدة ، ويستخلص منها أن هؤلاء الأقران كانوا يفضلونها فى الصفات التى كان يتغنى بها الشعراء ويمجدون ذويها وهى :

المحتد ، والكرم ، والبلاغة ، وقيادة الجيوش ، وسياسة الدولة ، وغيرها

من الصفات التي يجب أن يتحلى بها من يتصدى لشغل هذه المناصب الرفيعة وإدارة هذه الدولة الفسيحة ، فقد كان المحتد وطيب الأرومة من أهم دواعى الفخر والتباهى فى تلك الأيام ، وكان الناس - كشأنهم فى أغلب العصور التاريخية - يتفاخرون بالأجداد وعزة الأصل ، وبينما كان الربيع وابنه يفتقران إلى هذا الشرط ، فإن البرامكة كانوا ينتسبون إلى أصل فارسى عريق وكان جدهم الأكبر يعمل سادنا لمعبد المجوس ، وكان بنو سهل ينحدرون من أصلاّب ملوك الفرس الأقدمين ، وكذلك كان أصل طاهر بن الحسين ، وإذا حق لكل هؤلاء أن يفخروا بها أدوه إلى الدولة العباسية سواء عند نشأتها أو عند اكتمال قوتها ، فلم يكن عند الربيع أو ابنه ما يفخران به ، والمقارنة بين دوريهما ودور البرامكة تضعهما فى الكفة الناقصة ، ولن ينسى تاريخ الدولة العباسية ما فعله البرامكة من أجل عزة الدولة وصيانة عرش العباسيين من العواصف ، وكان خالد بن برمك يخوض المعارك ضد الأمويين ، وبفضله استطاع الجيش العباسى أن يقضى على فلولهم ، أما دور يحيى وأولاده فى خدمة الدولة فهو أنصع من أن يخفى . وكانت عبقريتهم الإدارية مضرب الأمثال ، وتتجلى قيمتهم بالمقارنة مع سياسة الربيع وابنه التى كانت مضرب المثل فى الفشل وقصر النظر ، ويلتمس الدكتور شلبى العذر لهما لفقرهما السياسى ، فالسياسة علم عميق يحتاج إلى سعة اطلاع وخبرة ، ودربة ، وكان ذلك عسيرا على الربيع الذى كان بالأمس القريب خادما صغيرا ووصيفا حقيرا؟ وكيف يقاس بالبرامكة فى هذا الشأن ، والبرامكة ذوو المعجد المؤثّل ، قرءوا حكمة الفرس ، وعرفوا سياسة الدول قبل أن يصلوا إلى بلاط العباسيين ، وفى المقابل لم يكن للربيع بن يونس ، موقف واحد يذكر فيشكر ، ويدل على سداد الرأى ، وعلو القدم فى علم السياسة ، أما الفضل فقد أغرق فى الفشل وأبعد فيه ، وقد سجل التاريخ عليه أمورا تدل على جهله بسياسة الدولة وتدبير الأمور .

الفهرس

٥	تقديم
٩	اغتيال ابن المقفع
١٩	نهاية فاتح السند
٢٧	صاحب التنور
٣٥	نكبة الأفشين
٦١	محنة رشيد الدين مؤرخ المغول
٧٣	نكبة البرامكة

رقم الايداع : ٩٦ / ١٤٢٥٠
I.S.B.N. 977 - 09 - 0367 - 1

مطابع الشروقة

القاهرة : ٨ شارع سيويه المصرى - ت : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

هذه الكتب

تلقت ابن المقفع حوله فوجد الاستبداد يتغلغل في قمة الدولة ، ورأى الفساد يضرب أطنابه في مؤسساتها الإدارية والمالية والقضائية والعسكرية ، ووجد الخلل يتسرب إلى الحكم على أيدي فئة من الوصوليين احترفت الإحاطة بالحكام لتضليلهم والتغريب بهم وحجب الحقيقة عنهم ، فالأموال الجمة تحمل من الأمصار والولايات إلى بغداد - عاصمة الخلافة - بدون سجلات تضبطها أو دفاتر تحاسب الجباة على ما تحت أيديهم من أموال ، والقضاة يتضاربون في أحكامهم في القضية الواحدة من بلد إلى بلد لعدم وجود قانون موحد يرجعون إليه في أحكامهم ، وقادة الجند - نجوم العهد الجديد - يعيشون في الأرض فسادا ، وينشرون بين العامة دعاوى الذل والخنوع للحاكم المستبد تحت ستار الطاعة لولى الأمر ، وبلغوا في ذلك مبلغا جسيما حتى قال قائلهم : لو أمرنا أمير المؤمنين أن نستدبر القبلة في صلاتنا . . لسمعنا وأطعنا . . !!

ومن عادة الحكومات المستبدة أن تستكبر على النصيحة ، وتستعلى على النقد ، ولكنها فيما بينها وبين نفسها تأخذ به ثم تتظاهر بأنها تحركت بمحض اختيارها حتى لا تعطى لمعارضيهما فرصة الإدلال عليها ، وهو - كما ترى - تصرف ينم عن ضعف الشخصية ، لأن الحكومة القوية لا تجد حرجا في النزول على رأى المعارضة مادام هذا الرأى يهدف إلى إصلاح العيوب وسد الثغرات والسعى نحو الكمال ، بل إن الحكومة المستبدة لا تتورع عن كتم أنفاس المعارض إذا اشتمت منه رائحة الاستعلاء عليها ، والتمست فيه تعمقا في كشف معاييها وفضح خباياها . .